حدث ذات جدار

مجموعة قصصيّة

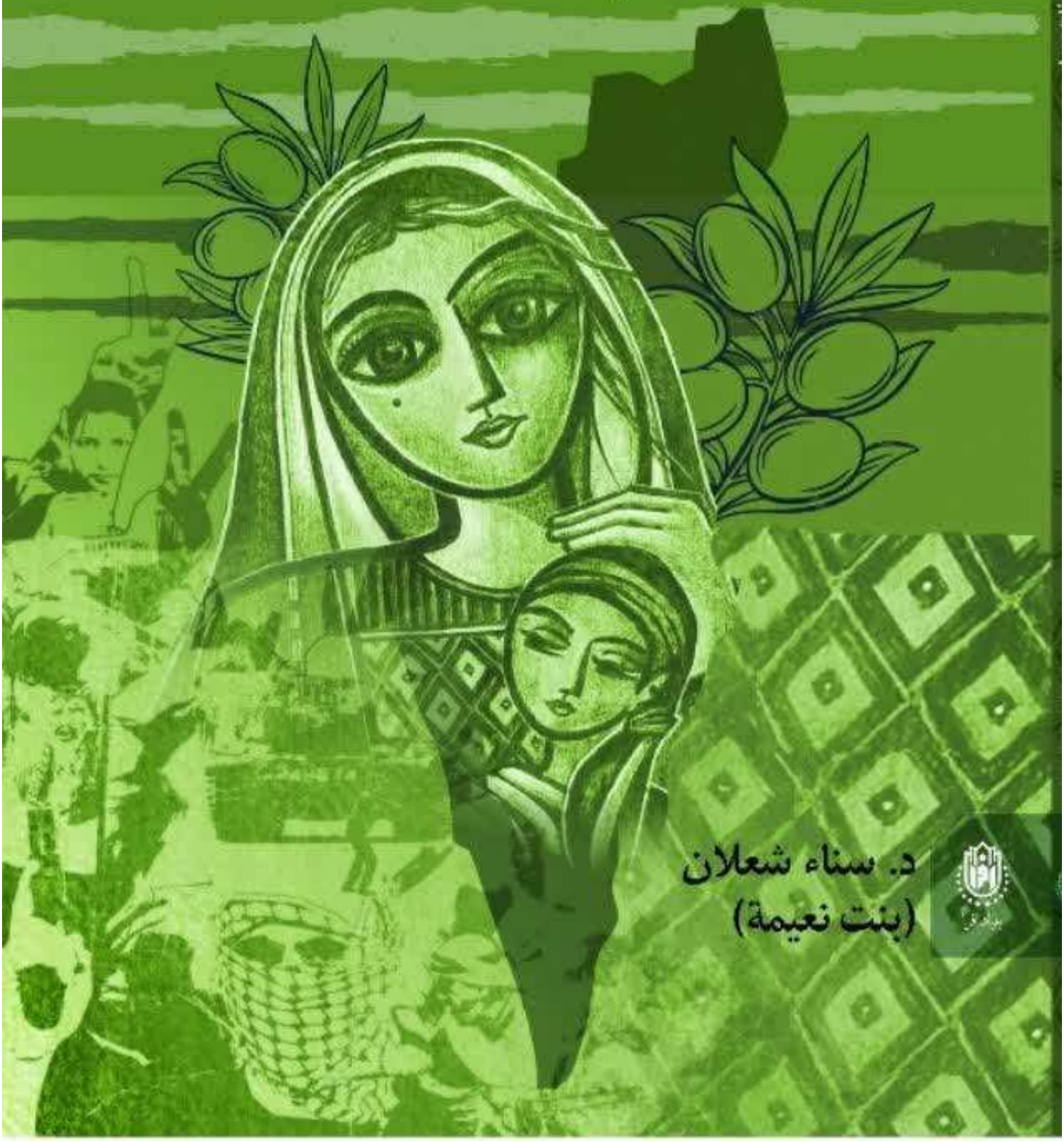

د. سناء شعلان
(بنت نعيمة)

بسم الله الرحمن الرحيم

من واجب الجدار الفاصل أن يخجل من نفسه،
وأن يبكي ـ ولو سرّاً ـ احتجاجاً على طغيانه واشمئزازاً من وجوده!

إهداء

إلى مَنْ لا تهزمهم الأسوار مهما علتْ وتجبّرتْ.
إلى أمّي (نعيمة المشايخ) القامة السّامقة الطّاهرة
التي لا تُهزم ولا تنكسر.
الفاتحة على روح أمي الحبيبة الراحلة

حدث ذات جدار

مجموعة قصصيّة

د. سناء شعلان

(بنت نعيمة)

شعلان. سناء، ۱۹۷۷-م.
Shalan.Sana Kami ۱۹۷۷
حدث ذات جدار: مجموعه قصصیه/ مؤلف: سناء شعلان(بنت نعیمه)
تهران: عمار. ۱۴۰۱. ۹۶ص. ۱۴/۱*۲۱۲ س م.
ISBN: ۹۷۸-۶۰۰-۹۶۶۸۰-۳-۸
یادداشت: عربی/ موضوع: داستان‌های کوتاه عربی ـ لبنان ـ قرن ۲۱م.
Short Stories Arabic-Lebanon۲۱--stcentury
رده‌بندی کنگره: PJA۴۹۴۲ رده‌بندی دیویی: ۸۹۲/۷۳۷
شماره کتابشناسی ملی: ۸۸۱۶۰۷۱

حدث ذات جدار

مؤلّف: د. سناء شعلان (بنت نعیمة) ـ أردن

(مجموعه داستان)

ناشر: عمار
طرح جلد و صفحه‌آرایی: عبدالمجید طوبایی
چاپ و لیتوگرافی: هوشنگی
چاپ اول: ۲۰۱۵م
چاپ دوم: ۲۰۲۳م. تهران
شمارگان: ۱۰۰۰ نسخه
شابک: ۹۷۸-۶۰۰-۹۶۶۸۰-۳-۸

مرکز پخش:
ایران: قم، خیابان ۱۹دی، کوی ۴۰، کوچه یکم
مجتمع آفتاب، طبقه چهارم، واحد ۲
moazamat.afra.official.1@gmail.com
تلفن: ۰۲۵۳۷۷۱۰۰۸۸-۰۲۵۳۷۷۱۰۰۹۹

الفهرس

قريباً من الجدار..... ٧
إضاءة على ظلام..... ٩
وبكى الجدار..... ١١
المقبرة..... ١٦
حالة أمومة ١٩
الصّديق السّري ٢٣
شمس ومطر على جدار واحد..... ٢٩
مَنْ أطفأ الشّمعة الأخيرة ؟!..... ٣٤
عندما لا يأتي العيد..... ٣٩
وادي الصّراخ ٤٦
الغروب لا يأتي سرّاً..... ٥٣
سلالة النّوْر ٥٧
ما قاله الجدار..... ٦١
السّجان مسجون أيضاً..... ٦١
قبر الرمثاويّ لا يُضام ٦١
لا قصة حبّ للجدار العازل..... ٦٣
بوّابة واحدة لا تكفي..... ٦٣

لا قانون ضدّ الأقدام العائدة..... ٦٤
الخيل الأصيلة تعود دائماً إلى أهلها..... ٦٥
الموتى لا يرحلون..... ٦٧
طائر الفينيق حقيقة لا أسطورة..... ٦٧
المجانين ضدّ الجنون..... ٦٨
الموت يساوي بين الأشياء..... ٦٩
ثورة العصافير خارج التّاريخ..... ٧٠
على الجدار أن يرحل في النّهاية..... ٧٠

بعيداً عن الجدار..... ٧١
البوصلة والأظافر وأفول المطر..... ٧٣
خُرّافيّة أبو عرب..... ٨١
د. سناء شعلان (بنت نعيمة)..... ٩٣

■

قريباً من الجدار

إضاءة على ظلام

الجدار العازل أو الجدار الفاصل هو عبارة عن حاجز طويل بناه الكيان الصّهيونيّ في الضّفة الغربيّة من فلسطين المحتلّة قرب الخطّ الأخضر؛لمنع دخول الفلسطينيين سكّان الضّفة الغربيّة إلى الكيان الصّهيونيّ أو إلى المستدمرات[1] الصّهيونيّة القريبة من الخط الأخضر. يتشكّل هذا الحاجز من سياجات وطرق دوريّات، أو من أسوار إسمنتيّة بدل السّياجات في المناطق المأهولة بكثافة مثل منطقة المثلّث أو منطقة القدس.

بدأ بناء الجدار في عام ٢٠٠٢ م في ظلّ انتفاضة الأقصى، وفي نهاية عام ٢٠٠٦م بلغ طوله ٤٠٣ كم، ويمرّ في مسار متعرّج يحيط بمعظم أراضي الضّفة الغربيّة، وفي أماكن معينة، مثل مدينة قلقيلية، يشكّل معازل، أيّ مدينة أو مجموعة بلدات محاطة تقريباً بالجدار من جهاتها جميعها.

وبينما تعارض السّلطة الوطنيّة الفلسطينيّة والمنظّمات الفلسطينيّة بناء الجدار، وتُطلق عليه اسم «جدار الفصل العنصريّ»، أو «جدار

١. المستعمرة تحمل معنى الإعمار، أمّا ما يبنيه الكيان الصّهيونيّ على أرض فلسطين ليأوي فيه المهاجرين الصّهاينة المرتزقة هو ليس أكثر من مستدمرة تدمّر الأرض والشّعب الفلسطينيّ بعد أن تسرق الأرض الفلسطينيّة من أهلها بقوة القهر والظّلم، ثم بعد ذلك تفسد كلّ شيء.إذن فهي مستدمرة لا مستعمرة.

الضّـم والتّوسّـع العنصـريّ»، تعبيراً عمّا تراه فيه مـن محاولة صهيونيّة لإعاقة حياة السّـكان الفلسـطينيين أو ضمّ أراضٍ من الضّفة الغربية إلى الكيـان الصّهيـونيّ، يصمّـم الكيـان الصّهيونيّ على الاسـتمرار في التّوسّـع في بناء هذا السّـكان الفلسـطينيين أو ضمّ أراضٍ من الضّفة الغربية إلى الكيان الصّهيونيّ، يصمّم الكيان الصّهيونيّ على الاستمرار في التّوسّع في بناء هذا الجدار!!!

وبكى الجدار

وُلدا في يوم واحد، كان يوماً فلسطينيّاً حزيناً يعجّ بالخوف والظّلم والقسوة والحرمان، كان يوماً ماطراً من مُزن السّماء ومن عيون المآقي، وكان العمّ نور محمولاً حينئذٍ على محفّة خشبيّة قديمة ملفوفاً بالعلم الفلسطينيّ، ومشيّعاً بترنيمة الخلود: «الله أكبر».

في طريقه إلى مثواه الأخير في بطن ثرى أمّه فلسطين، كانت الزّغاريد في انتظارهما لا ترحيباً بهما، بل وداعاً لعمّها البطل المغوار. كانا فتى وفتاة، من لحظاتهما الأولى في الحياة حملا الاسم نفسه، ففي خلاف عاجل بين والديهما المتنازعين على وهب اسم شقيقهما الشّهيد لأحد المولودين الجديدين، قرّرا أن يكون اسم كلّ منهما نوراً نزولاً عند اقتراح أمّهما الجدّة التي أرادت أن تحسم الخلاف بحلّ توفيقيّ مرضٍ لابنيها في آن.

لم يفترقا أبداً منذ وُلدا لا في نهارٍ ولا في ليل، يأكلان ويشربان ويستيقظان ويناما في لحظة واحدة كتوأمين متحابّين، كلّ من رآهما ظنّ أنّهما وليدا رحم واحد، قليل من كان يعرف أنّهما أبناء عمّ، وأقلّ منهم من يستطيعون أن يجزموا إن كانا صبيين أم فتاتين أم صبيّ وفتاة؛لأنّ الجدّة اعتادت على الرّغم من احتجاج أميهما على أن تلبسهما ملابس المتشابهة أكانت بزّات ولاديّة أم أثواب

بناتيّة وفق المتيسّر عندها من خوالف ملابس باقي الحفدة، وكان يسعدها أن تراهما يكادان يطيران فرحاً بملابسهما المتشابهة الموروثة الرّثة الفاقدة للونها الأصليّ الزّاهي بفعل التّقادم وطوال الاستهلاك.

كلما صاح أحدهما باسم نور، طارا كلاهما إليه مبتسمين بخبث طفوليّ مشاكس يصمّم على أن يكونا شريكين في كلّ شيء حتى في تلبية صوت الدّاعي، ما كانا ليقبلا بأن يفترقا أبداً مهما كانت الأسباب، ولكنّ المرض وحده هو من فرّق بينهما؛الجدّة أخذت حفيدتها نور إلى الطّبيب في البلدة المجاورة لقريتهم، يومها وعدت حفيدها الباكي نور بأن تعود بحفيدتها نور في ظرف ساعات قليلة بعد أن تعرضها على الطّبيب المختصّ، ولكنّها لم تبرّ بوعدها مكرهة لأنّ مرض نور ألزمها البقاء في مستشفى البلدة لأيام أُخر.

أضرب نور عن الطّعام في انتظار عودة ابنة عمّه نور، ولولا تهديد والده له بعدم عودة نور إن لم يأكل لقضى نحبه جوعاً، ومعدته الصّغيرة وجسده الهزيل أضعف من أن يحتملا الجوع لساعات فضلاً عن أيام.

طال انتظار نور لعودة ابنة عمّه نور، وما عاد أحد قادراً على أن يجيب عن سؤاله الحائر المفجّع: «متى تعود نور إلى البيت؟» فالكلّ كان في انشغال وهمّ بسبب ذلك الجدار الإسمنتيّ الأصمّ الذي زُرع حول قريتهم على غفلة بين ليلة وضحاها بخرسانة جاهزة تثبّت في الأرض تثبيتاً سريعاً في ساعات قليلة، وتغوّل حتى وصل إلى عنان

السّماء حاجباً خلفه الشّمس وجدّته ونوراً، بصعوبة استطاعت سنواته السّبع أن تستوعب أنّ جدّته ونوراً مسجونتان خلف الجدار الصّلد العاتي، وأنّه من الصّعب إن لم يكن من المستحيل أن يُسمح لهما بعبور بوابة الجدار للعودة إلى قريتهما، ولكنّه أبداً لم يسلّم إلى هذا الحكم الجائر الذي يحرمه من أثيرته نور.

وعلا الجدار أكثر وأكثر، ومضت الأيام الطّوال ببطء قاتل، والجدّة ونور مسجونتان خلف الجدار، وهو لاينفكّ يذهب كلّ صباح إلى الجدار يلازمه بالحدّ الذي يُسمح له به الجنود الصّهاينة الذين لا يمكن أن يفهموا معنى أن ينتظر أثيرته نوراً دون فتور أو كلل أو ابتعاد. كثيراً ما كان يصرخ باسم نور؛لعلّها تكون قريبة من الجدار، فتردّ عليه، وعندما كان يعييه صمتها كان يضرب الجدار بحجر، ويولّي هارباً من الجنود الذي يصلونه بتوعداتهم وسبابهم البذيء الخليط من العربية الرّكيكة والعبريّة والكلمات الانفعاليّة المضطربة اللّفظ والمعنى، ثم يهرب بعيداً ليعود من جديد في أقرب وقت ليستأنف نداءه لنور دون مجيب أو رحيم بحاله.

كثيراً ما حمله أبوه بحزم حنون بعيداً عن الجدار، وهو يعضّ على حزنه وانتظاره لأمّه المسجونة خلف الجدار، منكوداً بعجزه وقلّة حيلته، متسلّحاً بجملة واحدة لا تتغيّر، وهي: «ستعود جدّتك ونور في القريب العاجل إن شاءالله». فإن ألحّ نور على معرفة وقت عودتهما بالتّحديد انخرط أبوه في بكاء صامت مخنوق يبّلل لحيته،

فيكفّ نور عن إلحاحه رحمة منه بأبيه الباكي المحزون.

عـرف نـور أنّ جدته وابنـة عمّه نوراً تعيشـان في بيت قريب لهما في البلـدة خلـف الجـدار، وعلـم أنّ صحّـة نـور في تحسّـن، ولكنّـه لم يستطع أن يفارق أمله في أن يسمع صوتها يرّد على ندائه اليوميّ من خلـف الجـدار، وفكّـر في أن يلفت نظرها بإطلاق طائرتـه الورقّية إلى أعـلى الجـدار، لعلّها تطاوله أو تعلـوه، فتراها نور، وتعرف أنّه في أقرب نقطـة ممكنـة منها، وكاد ينجح في خطّته الـتي كلّفته الكثير من الجهد والخيـوط المسـتعارة مـن أبناء حيّـه، لكن الجنـود الصّهاينـة صادروا طائرته في أوّل تحليقة لها، وأعدموها هناك في حجرة المراقبة المنتصبة فـوق بوابـة الجـدار، وهكـذا فقـد أمله الأخيـر في التّواصل مـع أثيرته الصّغيرة نور.

صمّـم عـلى أن لا يفارق الجـدار دون أن يعود بنوره، واعتكف إلى جانبه لأيام شـتويّة باردة، فشلت محاولات الأسرة كلّها في إعادته إلى البيـت، وكان يمضـي وقتـه هاربـاً مـن ناحيـة إلى ناحية كـي لا تتلقّفه أيـدي المصّممـين عـلى إعادتـه إلى بيتـه ضنّاً بـه على هـذا العذاب الموصـول في انتظـار ابنـة عمّه نـور التي لن تعود مهمـا كابد من عناء البرد والعراء والجوع والضّنك والانتظار المعذّب.

وحـده الجـدار مـن كان يعـرف أيـن يختبئ نـور مـن مطارديه من أسـرته حـتى يقفلوا راجعين خائبين من حيث أتـوا دون أن يعودوا به عـلى كـره منـه، وكم كاد يتمنّى مـن أعماقه الإسمنتيّة الصّلدة القاسـية

لو يستطيع أن يملك نطقاً ليوصل سلام نور المشتاق إلى الصّغيرة نور التي تنتظره على الجهة الأخرى منه رافضة أن تعود مع جدتها إلى بيت الأقارب هرباً من هذه اللّيلة الباردة.

وعندما كان يغلبه ضعفه كان يحاول دون جدوى أن يصدّ بمنكبيه تلك السّحب السّوداء التي تنذر بليلة ماطرة باردة، لكنّ السّحابة تطاولت عليه، واستهانت بمنكبيه العملاقين، وغشيت المكان ضدّ رغبته، وهيمنت على السّماء مزبدة مرعدة، فارتدّ الجدار إلى نفسه مخزيّاً خجلاً من قسوته على قلبي طفلين لا يريدان من الحياة إلاّ أن يلتقيا.

المطر ألجم المكان بالصّمت والعجز، وأغرقه في دفعات ضخمة من شآبيبه، وما انجلى إلاّ في الصّباح وقد غسل كلّ شيء بطهره البلّوريّ البارد، وهناك كان الجدار يبكي بحرقة على طفلين صغيرين كلّ منهما يحمل اسم نور، وهو يغشاهما بظلّه اللّئيم الأسود القابض وكلّ منهما ميّت مسجّى على ناحية مختلفة من جسده الصّلد البارد.

حزن الجدار على الطّفلين المتغالين حزناً وحسرة لأنّه حرم أحدهما من الآخر بجريمة أنّهما فلسطينيين، لم يستطع الجدار أن يمدّ كفيه ليلتقط هذين الجسدين الهزيلين الصّغيرين كي لا ينجسهما بخطيئته تجاههما، وفي لحظة غضب شعواء منه شرع يهتزّ في مكانه، خالعاً كلّ ما عليه من غرف ومكامن ومراقب وجنود وبوّابات، مستسلماً للدّك والتّهاوي تكفيراً عن ذنبه الأسود، ومنداحاً في دموعه الإسمنتيّة وفي أحزانه وندمه على قتل الصّغيرين العاشقين بتجبرٍ وبطش دون رحمة.

المقبرة

لا تستطيع الحاجّة رشديّة أن تُحصي أحزانها الفلسطينيّة؛فأحزان الفلسطينيّ لا تُحصى مادامت لعنة الاحتلال الصّهيونيّ تنهش ماضيه وحاضره ومستقبله، كذلك لا تستطيع أن تُحصي عدد من فقدتْ من أحبّة من أقارب وجيران وأصدقاء بين قتل وسجن ونفي وتعذيب ومرض وتشويه واختطاف، ونكاية بعدوّها الغاشم فهي تصمّم على أن لا تذكر علناً عدد من قدّمت من أبنائها شهداء في قوافل الحرّية، وإن كان قلبها يحصيهم في كلّ لحظة بحرقة وتوجّد وفقد، فهم ثلاثة من زينة الشّباب، كانوا مثل سنابل فرعاء نديّة شهيّة عندما قصفهم العدّو الصّهيونيّ الواحد تلو الآخر دون أن يرأف بشبابهم المُرتجى أو بآمال أمّهم التي أفنت سنين شبابهم عاكفة على يتمهم وفقرهم.

لم يرها أحد في يوم تبكي أحداً من أبنائها، وكانت تصمّم على أن يناديها أهل الحيّ باسم أمّ الشهداء، وتتيه فخراً كلما روت بالماء وبدموع العينين زيتونات قبورهم، وداعبتها بانكسار يتعالى على زفراتها اللاهثة المفطورة على ألم عملاق.

أمّا اليوم فلم تخجل من أن تنتحب، وأن تبذل دموعها سخيّة مدرارة وهي تعانق زيتونات بستانها، وتتشبّث بجذع أكبرها لعلّها تعصمها من أيدي جنود الصّهاينة الذين داهموا القريّة من طلوع

الشّمس، وعاثوا تقتيلاً في أشجارها قبل أن يجرّفوا أرضها، ويلقوا بأهلها جميعاً خارجها حفاة مذعورين بحجة تملّك أراضيهم من أجل بناء الجدار العازل. ولكّنها على الرّغم من جبروت رفضها الأبيّ للرّحيل وجدت نفسها شعثاء غبراء دون غطاء رأسها الأبيض ودون بيتها أو بستانها أو زيتوناتها الوفيرة بل دون قريتها كاملة، ففي ساعات قليلة كانت معظم أراضي القرية مصادرة، وكانت الأراضي الزّراعية جرداء مغتصبة مجرّفة من أشجارها ومن فرحها، فغدت القرية دون سكّانها بعد أن شطر مخطّط الجدار الفاصل القرية إلى نصفين؛نصف صغير يسجن خلفه حشداً عظيماً من أهلها، والآخر يعزل أمامه مقبرة القرية الباقي الوحيد منها بعد أن غدت كلّها خلا المقبرة خلف الجدار العازل ذي الأسلاك الشّائكة والكلاب والبنادق والجنود الصّهاينة.

وحدها الحاجّة رشديّة من بقيت في القرية المختزلة في المقبرة بعد هذا التّقسيم الجائر السّريع الذي نهشها، إذ ظلّت متشبّثة بأرضها، ورفضت الرّحيل لتكون شهيدة جديدة تزفّ إلى المقبرة وإن كانت لا تزال على قيد الحياة! أمضت أياماً قصيرة في مثواها الجديد موزّعة بين أبنائها الأرواح الثّاوين في القبور، وبين شجراتها الزّيتونات المرسلات قتلى على أرض المقبرة بعد أن رحّلتهم إلى جانبها، وفي جنباتها ذلك الحقد المرجل على ذلك الجدار الغاشم الذي بات ينمو بتوحّش أمام عينيها ليحرمها من قريتها وأهلها وتاريخها المديد.

المقبرة هي آخر ما تبقّى لها من عالمها المتواري قهراً خلف الجدار،

وهي هنا وحيدة لا تملك سوى شجاعتها وإصرارها على البقاء، وفأسها آخر من رافقها في دربها نحو زيتوناتها، تحدّق في فأسها العتيد المخلوع جانباً، تتفرّس مقبضه الخشبّي الموشّى بمزق جلد يديها، تتأبّطه، وتحكم ربط غطاء رأسها، وتحزّمه بأطراف ثوبها، وتخطو أوّل خطواتها نحو الجدار، خطواتها ثابتة وسريعة تقصد أن تنهال بفأسها على الجدار تحطيماً وتهميشاً، تقترب أكثر من جنود العدّو الذين يهرعون هروباً نحو البعيد من وجه امرأة عجوز تحمل فأسها وغضبها وانتقامها المستعر، وخلفها أجساد تجرّ أكفانها، وتحمل فؤوساً مهدّدة بها وهي تكاد تنقضّ على الجدار، وفي الأفق تلوح المقبرة بقبور مفتوحة قد غادرها الشّهداء إكراماً لدموع الحاجة رشديّة بغية مساعدتها في تحطيم الجدار العازل!

حالة أمومة

لم تكن تعلم بزرع الجدار العازل على أرض قريتها في فلسطين، وهي تقبع في غرفتها الصّغيرة المعزولة في مستشفى إحدى العواصم العربيّة بعد أن حصلت على منحة علاج من إحدى المنظّمات الطّبيّة الخيريّة الدّوليّة بعد طول انتظار لتُعالج من مرض السّرطان الخبيث الذي غزا ثديها الأيسر منذ أن وضعت ابنها الوحيد هاشم، ومنعها من أن ترضعه ولو لمرّة واحدة في حياتها، ثم ألجأه إلى حضن عمّاته الثّلاثة العوانس اللّواتي يشاركنها السّكنى في البيت نفسه، كما يقاسمنها أعباء الحياة القاسيّة في مواجهة عدوّ اعتاد جنوده على مهاجمة بيتهم في دوريات تفتيشيّة مداهمة مكرورة منذ أن اعتقلوا زوجها في مواجهات احتجاجيّة في الشّهر الثّاني من حملها.

وكذلك زوجها لم يعرف شيئاً عن مرضها أو عن سفرها خارج الوطن برفقة والدها من أجل العلاج، فقد أخفت أمر مرضها عن زوجها بناء على رغبة شقيقاته اللّواتي آثرن التّكتّم على هذا الخبر كي لا يزدن من عذابات معتقله، وبوائق أحزانه وآلامه.

كانت تحلم بأن تعود إلى بيتها بعد طول غياب كي تضمّ صغيرها إلى صدرها الذي فقد ثديه الأيسر قرباناً للمرض، فتشمّه، وتغيب معه في احتضان طويل دافئ يجفّف برد حرمانها منه، وما كانت تعلم

أنّها ستجد وطنها قد سُرق من جديد، وأن بيتها قد أصبح محض ذكرى سرابيّة بائدة، وأنّ شقيقات زوجها قد توزّعن على بيوت الأقارب مهجّرات بعد أن صادر العدّو بيتهم وأرضهم، وحوّلها إلى مساحة جرداء تحتضن جداراً إسمنتياً يحوّل الوطن إلى سرادق ضيقة ومصائد فئران وسجن انفراديّ.

تلاشى حلمها الوردّي بأن تحتضن طفلها الصّغير، بعد أن تحوّل إلى كابوس تعيشه بتفاصيله القبيحة الموحشة، وها هي قد أصبحت لاجئة في وطنها، وعلقت مع أبيها في بيت حجرة يسكنه أفراد عشرة من أقاربها، ومن جديد بات عليها أن تحارب سرطان الألم والوحدة والنّبذ.

حاولت دون جدوى أن تعود إلى أسرتها خلف الجدار، واشتدّت محاولاتها إلحاحاً عندما علمت أنّ زوجها قد خرج من المعتقل، واكترى بيتاً صغيراً في أطراف قريته، وجمع شمل أسرته من جديد، وجعل شغله الشّاغل أن يجد طريقة تسمح لزوجته بالعودة إلى بيتها وأسرتها وابنها، ولكنّه كان يخفق المرّة تلو الأخرى في تحقيق مراده، ويعود إلى سريره الحزين مخذولاً محروماً.

وكانت الفرصة الوحيدة للّقاء هي عبر الحصول على تصريح زيارة حصلت عليه بشقّ الأنفس، ولو كان هناك سفر للشّمس لكان أيسر من الحصول عليه، وأخيراً استطاعت أن تضمّ طفلها إلى صدرها تحت عيون الرّقباء غير الوامقين من الجنود الصّهاينة، بدا لها أنّه بالغ الإعياء على الرّغم من تلك الحمرة الوراثيّة التي تعلو

وجنتيه، جفل منها عندما أمطرته بقبلها الهوجاء الملوّعة، ولكّنه استسلم سريعاً إلى رائحة أمومتها الفيّاضة التي تزكم أنفه وهي تدسّه في حضنها بانفعال واضطراب.

عيناه موئل لحزن عتيق، ورائحته تعجّ برائحة عشرات النّساء اللّواتي تناوبن على إرضاعه بعد أن فقد أمّه كي يحافظن على حياته من الهلاك، فأصبحت له عشيرة من الأمهات المرضعات والأخوة بالرّضاعة، ضمّته أكثر إلى صدرها؛لعلّها تكسوه برائحتها الحانية، فتنزع عنه رائحة الأمهات المرضعات الكُثر اللّواتي يشاركنها أمومتها بوحيدها الصّغير.

سريعاً ما انتهى وقت زيارة التّصريح، وتلقّف زوجها ابنهما منها، وضمّه إليه بشجاعة يحاول أن يصطنعها على كره وإصرار، ولكنّه يخفق في إتقانها، طبعتْ قبلة سريعة على جبين ابنها، وهمستْ في أذنه: «سأعود في القريب. صدّقني».ثم غادرت المكان، وهي تخلع قدميها المرة تلو الأخرى من الأرض التي يصعب عليها أن تغادرها، ومزقة من قلبها تضطرب بعجزٍ بين يدي زوجها الذي يسير نحو البعيد مهدّماً ضعيفاً، وكأنّه شاخ بمقدار قرن أو اثنين في أسابيع قليلة.

مضى يومان وهي تحلم بأن تضمّ طفلها إلى صدرها من جديد، وهي أسيرة عينيه الزّائغتين في فراغ مجهول، عندما رفض العدوّ أن يعطيها تصريحاً للزّيارة ولو لدقائق قليلة، هزأت من جبنه المتجبّر على طفل صغير وأمّ مريضة وحيدة، وقررت أن ترى ابنها أوافق

العدوّ على ذلك أم أبى.

في المساء كانت قد عبرت الجدار الفاصل رغم أنوف الجنود الصّهاينة المدجّجين بالسّلاح والخوف والحذر، ولكنّها لم تكن تسعى حيّة على قدميها عندما عبرته، بل كانت جثة هامدة مخرّقة بالرّصاص، وموصومة بجريمة التّخريب، ركلها الضّابط المناوب على الحراسة الليليّة بحذائه العسكريّ الغليظ، وأمر جنوده بأن يبعدوها عن البوّابة، ففعلوا، وكوّموها إلى جانب الجدار وكفّ يدها متخشّبة على ثديها الأيمن الذي كانت تحلم بأن ترضع ابنها منه ولو لمرّة واحدة في حياتها المهدورة على بوابة الجدار العازل.

الصّديق السّري

لم يحظَ يوماً بأيّ صديقٍ بالمعنى الدّقيق لهذه الكلمة، ولعلّ هذه الشّفة الأرنوبيّة هي السّبب في هذا الأمر؛لم يستطيع أبداً أن يدير حواراً غير مختزلٍ مع أيّ أحد خارج بيته كي يختزل لحظات تحديق العيون الفضوليّة في شفته الأرنوبيّة التي وُلد بها، البعض يقول إنّها عيب خلقيّ مردّه إلى أنّ أمّه قد أنجبته وهي كبيرة في السّن قد تجاوز عمرها الخمسين سنة بعامين، والبعض يرجّح أنّ هذه الشّفة هي من مضاعفات القنابل المسيلة للدّموع التي يغرق العدو الصّهيونيّ الشّوارع والأحياء بها مرّة تلو الأخرى.

لا يعرف سبب علّته ونقصه، ولكن ما يعنيه من كلّ ما سمعه حول شفّته أنّه يستطيع أن يتخلّص منها بعملية تجميليّة سهلة في أيّ عاصمة عربيّة خارج الوطن حيث طبّ التّجميل متقدّم ومتيسّر، ولكن هذا حلم مؤجّل بسبب ذلك الجدار العازل الذي خنق قريته، وعزله وقومه عن الدّنيا وأهلها في جغرافية ضيّقة تناضل لتظلّ على قيد الحياة في أصعب معطيات الاستمرار.

هذه الشّفة جعلته يصادق النّاي الخشبيّ الذي صنعه جدّه له منذ زمن طويل، هذا النّاي هو الصّديق الوحيد الذي يهبه وجهه كاملاً غير متدارٍ خلف الصّمتً كي يشيح بشفته عن أيّ نظرات

فضوليّة قد تطرح عليه الأسئلة المزعجة الخانقة عن سبب هذا التّشوية الخلقيّ المزعج.

لولا هذا الجدار العازل لاستطاع أن يجري العمليّة المنشودة منذ أشهر طويلة، ولكنّه مصلوب على عذاب يتلخّص في أنّ من يخرج من بيته خلف الجدار الفاصل قد لا يستطيع العودة إليه، إذن عليه أن يظلّ في انتظار أمله المجنّح المحلّق نحو البعيد، وفي انتظار ذلك يهمس بأحلامه الزّاهية وآماله الملحاحة إلى نايه الحبيب الذي يحوّل دواخل نفسه المكلومة إلى موسيقى عذبة قادرة على أن تتحدّى الجدار، وأن تحلّق بفرح نحو البعيد حيث الانعتاق والحرّية دون أن تطالها يد خانقة، أو يصادرها ظلّ جدار عال لا يُتخطّى.

جزء من الجدار العازل لا يزال غير إسمنتيّ بل هو أسلاك شائكة، وحراسة مشدّدة في انتظار دوره كي يُزرع إسمنتاً وصلباً وحديداً مثل سائر الجدار، ومن أقصى امتداده الشّرقيّ حيث يمتدّ في حقول الحمضيات بعد أن اكتسح الأشجار، ونزعها ليلقي بها بعيداً يكشف عن تلك المستعمرة الصّهيونيّة التي تربض على أرضٍ سلبتها وجوه غريبة شوهاء قادمة من البعيد لينتصر الموت والبغي والظّلم والأسلحة على الجغرافيا والتّاريخ في معادلة سياسيّة استبداديّة ساخرة.

في البداية اعتاد على أن يتلصّص على المستدمرة من باب الشّهوة في كسر إسار الجدار المضروب حول كلّ شيء، فيما بعد غلبه الاستسلام لتلك اللّعبة الفضوليّة الجهنّميّة المسمّاة مقارنة، أركان اللّعبة

متوفّرة كاملة في هذه اللّحظة وفي اللّحظات جميعها، فعالمه المقهور المظلوم في مواجهة ذلك العالم المرفّه الجميل هناك في المستدمرة، هنا تحاصره وجوه الجنود والكلاب والسّلاح والموت والأرض المحروقة والمعتقلات والتّعذيب والقتل والخراب واليتم والخوف والفقر والحرمان وحظر التّجول والشّوارع الضّيقة والبيوت القديمة والخدمات المعدومة والغلاء والمعاناة، وهناك في المستدمرة على مسافة يقطعها بربع ساعة من السّير الهوينى يرى الرّخاء والرّفاهيّة والسّلام والأمن والغنى وأسباب السّعادة حاضرة جميعها، قليل من التّفرّس في تلك الوجوه الطّفوليّة الباسمة الرّغيدة المترعة صّحة وعافية، وهي تصهل في تلك السّاحة العشبيّة الخضراء، وتتبارى في صخب وضحك كفيلة بأن تقوده إلى صور بؤسه المقيم حيث الوجوه الكالحة في القرية، إذ لا تأتي السّعادة إليهم إلاّ مهربّة تستعجل المغادرة، ثم تولّي هاربة مع أوّل طلقة رصاص من بندقية صهيونيّة.

كم يحلم بأن يعيش في هذه العالم الجميل، ومن جديد يتساءل لماذا عليه أن يكون أسير عالمه البائس حيث ظلّ الجدار العازل؟! يكرّر السّؤال على نفسه المرّة تلوالأخرى، وتحار الإجابات، وتضلّ طريقها عنه، ويظلّ أسير هذا السّؤال الذي يقدح زناد سخطه وحقده، فيضيفه إلى جملة أسئلته ذات الأقدار المجهولة.

لم يكن يتوقّع أنّ هناك عينين ترقبانه منذ أيام طويلة، وتسعيان إلى أن تقتربا منه إلى أكبر مسافة ممكنة، ولم يتخيّل أن تسلّله لبضع

خطوات إلى داخل المستدمرة سوف تجعل تلكم اليدين الصّغيرتين تقبضان عليه بعطف موزّع بين الحذر والخوف والرّغبة الشّديدة في التّواصل، كاد قلبه يطير خوفاً عندما هبطت اليدان الدّافئتان الصّغيرتان على كتفه، ولكن تلك القبضة الحنونة البعيدة عن القسوة التي ألفها وشعبه من أيادي الصّهاينة جعلته يستسلم لها، ويلزم مربضه دون أن يفكّر في الهرب.

العينان اللّتان كانتا ترقبانه واليدان اللّتان قبضتا عليه كانتا لصبّي في مثل عمره، هو صهيونيّ صغير من ذلك العالم حيث الرّفاهية والسّعادة، إنّه من أبناء الغاشمين الظلّمة الذي سرقوا وطنه، ذلك الغريب الصّغير يعيش في نور الشّمس، أمّا هو فيعيش قسراً في ظلّ الجدار العازل، عليه أن يبتعد عنه، وأن يغادر المكان ليعود إلى أهله وبيته، وأن لا يثق فيه، ولكنّه يرى أمناً غريباً في عينيه الرّماديتين، ورجاء مخلصاً يسأله بذل أن يظلّ معه، وأن لا يهرب بعيداً عنه، في نفسه حربان، وعليه أن ينتصر لواحدة منهما ضدّ الأخرى كي يجد طريق الرّشاد؛إمّا أن يهرب نحو البعيد، أو أن يصدّق قلبه الذي يهمس له بأن يبقى مع هذا الصّبيّ الصّهيونيّ ولو لبعض الوقت، ونفسه تهتف به أن يستسلم لهمس قلبه، وأن يقطع أجمل أوقات اللّعب معه في هذه الحديقة الجميلة التي يرتع فيها ليل نهار.

مضت أسابيع طويلة وهو يسعد بهذا الصّديق السّري الذي وهبه له القدر في لحظة تخلّ عن قسوته، لقد حظي أخيراً بصديق حقيقيّ

لا يخجل من أن يحدّق في شفّته الأرنوبيّة الشّوهاء، هما من عالمين مختلفين، بل من معسكرين متحاربين، ولكن تجمعهما محبّة طفوليّة كلّها دهشة وأُنس وألفة ولا تخضع لحروب الكبار وخصوماتهم، ولا تعترف بجدران أو فواصل، يجلسان لساعات مختبئين في مربضهما بين الأشجار في حديقة المستعمرة، متواريان عن كلّ شيء خلا حديثهما العذب الحنون، يتحدّثان في كلّ شيء بلهجة خليط من العربيّة والعبريّة التي يتوافر كلّ منهما على أقدار كافية منهما، ويتمنيّان لو يستطيعان أن يجريا في المروج دون وجل أو خوف.

في لحظة تخلّ عن ضوابط عالميهما يقرران أن يجريا ويرمحا في الحديقة، يخرجان من مكمنهما، وشطيرة كل منهما في يده، يقضم كل منهما قضمات سريعة من شطيرته، ويمضغ لقمته على عجل، ثم يستسلمان لرغبتهما الأثيرة في الرّكض واللّعب، ويعلو صوت لهاثهما المحمّل بالضّحك والسّعادة، ويطغى ضجيج لهوهما على أصوات الصّبية حولهما، دقائق تمرّ، وينتبه الموجودون إلى الفتى الفلسطينيّ الأسمر الذي يصهل في الحديقة، ويعانق الفتى الصّهيونيّ، فوضى سريعة تطغى على المكان، وخبر الصّبي الفلسطينيّ الموجود في الحديقة يطيّر في المستدمرة كما النّار في الهشيم، بنادق تصوّب نحوهما، عيون شريرة كثيرة تحاصر المكان لاقتناص الصّبي الفلسطينيّ الذي يتجمّد في مكانه مبهوتاً مرعوباً متذكّراً وصايا أمّه بعدم الاقتراب من المستدمرة، عشرات الصّور والوجوه تمرّ سريعاً دون سبب مبرّر

في مخيلته البريئة، وأزيز طلقات يعلو في المكان، ثم تستقر الطّلقات جميعها في بطنه، وتتوالى أخرى مسرعة إليه لتستقرّ أنّى شاءت في جسده الصّغير الغضّ، رغبة جارفة في الاستسلام للعدم تجتاحه، فيجثو مهدوماً على الأرض، وعيناه تبحثان عن أرض دون ألم في عيني صديقه الصّهيونيّ الذي يرفع عقيرته في رجاء موصول للبنادق كي تكفّ عن صبّ جحيمها على جسد صديقه الفلسطينيّ، وعندما يفشل في إقناع البنادق بأن تكفّ عن إطلاق رصاصها، يلقي بنفسه على جسد صديقه، ليشاركه بتلقّي الرّصاصات الواغلة في جسديهما دون رحمة.

الصّور والوجوه جميعها تغيب عنهما، يسقطان أرضاً في مساحة صغيرة، عينا الصّبي الصّهيونيّ تجولان بوهن في عيني صديقه الفلسطينيّ بحثاً عن ابتسامة مسامحة يهبها له تكفيراً عن هذه الرّصاصات التي اغتصبت فرحه وروحه، وعينا الصّبي الفلسطينيّ تهربان نحو الجدار العازل حيث وجه أمّه مسجوناً خلفه في حزن دائم، يبتسم لوجهها ذي الحزن النّبيل الدّائم وهو يبرق في ذاكرة قلبه، ثم يمضي نحو البعيد حيث لا جدران عازلة أو بنادق غادرة أو صديق صهيونيّ اللّعب منه يعني الموت.

شمس ومطر على جدار واحد

لا شيء في هذا المكان يذكّرها بالشّمس الجميلة المشرقة على الرّغم من ارتفاع حرارة الجوّ إلاّ وجه ذلك الشّاب الفلسطينيّ الذي اعتادت على أن تراقب قسماته في كلّ صباح وهو يعبر بوابة الجدار العازل حيث يمرّ بالمكان جبريّاً ليعبر إلى الطّريق السّريع باتجاه عمله، منذ وقعت عيناها عليه في صباح مشمس شعرت بالدّفء الحاني بدل الحرارة اللافحة التي كانت تحرقها في مكانها، وتجعلها تلعن اللّحظة التي جعلتها تترك هنغاريا، وتجري خلف أساطير كاذبة عن أرض الميعاد.

في حقيقة الأمر هي كانت تبحث عن فرصة جديدة للحياة والعمل والدّراسة بعيداً عن صديقها البلجيكيّ الذي خدعها وسرق أموالها مرّة تلو الأخرى، وفي منأى عن زوج أمّها السّكير الذي اعتاد على التّحرّش الجنسيّ بها منذ أن كانت صغيرة.

جاءت إلى هنا طلباً لفرصة جديدة في الحياة، فلم تجد إلاّ القهر والخوف والعمل المضني ليل نهار، في هنغاريا درست رقص الباليه الذي تحبّه، ويليق بجسدها المرمريّ الذي يخبّ خبّاً كحصان أسطوريّ مجنّح بأردية من سحر ليجيد الرّقص بين السّحاب، ما كانت تتخيّل أبداً أن تقودها الظّروف والخيبات المتتابعة والوحدة والفشل المستمرّ والخوف من العودة إلى هنغاريا لتتطوّع لتكون

مجنّدة في الجيش الصّهيونيّ لتقف على الأبواب، وتعدّ أنفاس الفلسطينيين، وتبادلهم كرهاً بكره دون أن تعرف مسوّغاً مقبولاً لذلك سوى موجبات عملها الكريه، ثم تعود إلى بيتها مساءً محطّمة، وتنزف نفسها تقيؤاً وهي تسبّ وجهها الجميل الذي يرضى بأن يعانق هذا القبح كلّه صباح مساء على تلك البوّابة اللّعينة في الجدار العازل.

أُخضعتْ لدورات تدريبيّة نفسيّة مكثّفة لتقبل بفكرة أنّ هذا الجدار يحمي شعبها الصّهيونيّ الذي تنكر في سحيق أعماقها انتسابها له، وتقنع نفسها ظاهريّاً بأنّها تقف على هذه البوابة لتخدم أمّتها، ولتقمع أولئك المتوحّشين من الفلسطينيين الذين ينخرون في أمن كيانهم الرّابض على هذه الأرض التي تشعر بأعماقها بأنّها غريبة عنها، ولا تنتمي إليها بأيّ شكل من الأشكال، ولكنّها على الرّغم من ذلك لا تزال تشعر بالقرف من نفسها كلّما وقفت ببزّتها العسكريّة تفتّش الأجساد العابرة من بوّابتها، وتشمّ جبراً رائحة الكره والضّغينة والتّحدّي في العيون الفلسطينيّة المتحفّزة لغضب قابل للاندلاع في أيّ لحظة.

كلّ شيء في هذه البوّابة يشعرها بأنّها في جهنم؛ فهي بوابّة متوحّشة تفصل بين عالمين مشتعلين، وهي حارسة عليها دون معنى لوجودها هنا بعيداً عن عاصمة الثّلج حيث وُلدت.

وحده ذلك الشّاب الفلسطينيّ هو من يشعرها بدفء مكلّل بالمطر كلّما مرّ بالقرب منها، لا تشمّ فيه رائحة حقد أو كره أو تحفّز

لإيذائها، ترى في عينه غزلاً نادراً لا يجيده إلاّ من يملك روحاً مثل روحه التي تقدر على أن تغلي عاطفة وحنوّاً حتى في ليلة ماطرة!

هو من جعل لوجودها في هذا المكان معنى وغاية، النّهارات التي تبدأ بوجهه تغدو رؤوماً قابلة للامتداد في الرّوح والجسد والكلمة، عندما تراه تفكّر دائماً برقصة باليه مشتركة مع جسده الرّجوليّ المعجون بشقائه وعرقه وسمرته المثيرة على الجليد اللامع الزّلق.أحياناً كان يفوتها أن تراه في طابور العابرين في الصّباح لانشغالها بتدقيق أوراق المناوبين الصّباحيين، ولكي تتلافى هذا الحدث غير السّعيد، فقد اعتادت على أن تأتي مبكّرة لتدقّق الأوراق الرّسميّة، فيخلو لها وجه الأسمر تتفرّسه قدر ما شاءت حتى يغادر نحو البعيد مع زملائه من العمّال الفلسطينيين الذين يعبروا كلّ يوم بوّابة الحزن نحو الشّقاء في الأراضي المستدمرة كي يلاحقوا لقمة العيش المغموسة بالخوف والحزن والذّل وساعات لا تعدّ ولا تُحصى من الانتظار على البوّابات والمعابر ونقاط التّفتيش والتّحميل والتّفريغ.

أصبحت الحياة أجمل بوجوده، مرّة تعمّدت أن تفتّشه بيديها العاشقتين، فاحترقت برعشة الاشتهاء، ولوعة الشّوق وهي تتلمّس هضاب جسده وسهوله بضراعة من يتبرّك بعباءة وليّ صالح، مسّدت أكثر من مرّة على عضلات صدره، وكادت تلمس خفقات قلبه الذي فضح صمته، وقال لها قهر تكتّمه: «أحبّك».

فيما بعد عاهدت نفسها على عدم الاقتراب منه أكثر كي لا

تحترق بجمر جسده، واكتفت بأن تكون في أقرب نقاطها منه في كلّ صباح، تيسّر له العبور مع من معه من العمال بأقل قدر من الانتظار والإزعاج، وتسعد بادخار نظراته في عميق وجدانها حيث تسكن الإيقاعات الموسيقيّة ممزوجة برقص الباليه.

كانت ترجوه بصمت أن يهمس لها بأيّ كلمة، وما كانت تحلم بأن يهديها ديواناً شعرياً لشاعر فلسطينيّ قال لها إنّ اسمه محمود درويش، وإنّه يحبّه جدّاً، فكان لزاماً عليها من تلك اللّحظة أن تحبّه إكراماً لحبيبها الأسمر الجميل.تفرّست في الدّيوان على غير عجل، وكأنّها تريد أن تنعّم أناملها بمس كلّ صفحة قد يكون قد مسّها من قبلها، حدّقت طويلاً في الصّفحة الأولى حيث كتب لها بخط عربيّ بديع الانحناءات: «عندما أراك يسقط المطر في سماء روحي: مصلح الوادي».

قرأت العبارة عشرات المرّات حتى حفظت انحناءات كلّ حرف فيها، وراق لها أن تجمع مطر قلبها مع شمس وجهه كلّما التقيا في بوّابة هذا الجدار المقيت الذي باتت تتقزّز من ظلّه الرّابض على صدر الرّجل الذي تخشى أن تعترف لنفسها بأنّها تحبّه.

أشهر طويلة مرّت وهي تراقصه رقصة العشق في هذه البوّابة، وتحلم دون توقّف بنهار مشمس يتخلّله مطر مداهم يدكّ هذا الجدار ببوّاباته جميعها، ويسمح لها بأن تقترب منه لتقول له دون خوف أو وجل أو ريبة: «أحبّك».

هذا الصّباح استيقظت من نومها وهي تتمتم بجملة: «أحبّكَ».

طوال الطّريق وهي في دربها إلى البوّابة في سيّارة الجيش كانت تحلم بأصابعه تداعب نمشها الورديّ، وبشفتيه الغليظتين ترسمان قبلة على جبينها الصّغير النّاصع البهاء، المطر كان يقرع زجاج السّيارة، وأشعة الشّمس تتحدّى قطرات المطر الوليدة، وتشاغب خصلات شعرها الأحمر المجعّد، فتبتسم ابتسامة أنثويّة تعجز عن كتمانها في أعماقها، وتشرئب نحو البعيد حيث البوّابة تقترب منها، وموعد لقائها الصّباحيّ بمن تحبّ يقترب كذلك.

عندما وصلت إلى البوّابة كان المكان يضطرب بالجنود والصّخب والكلمات المتطايرة التي تشير إلى مشكلة ما، ومن خلف جموع الجنود كان تبزغ أجساد مسجّاة على الأرض وكلاب بوليسيّة شرسة تنهشها، زملاؤها الجنود قالوا لها إنّهم عمّال فلسطينيون مخرّبون، اقتربت منهم بوجل؛فهي تدرك معنى كلمة مخرّب المزعومة التي يتّخذها جنودهم ذريعة لممارسة موهبتهم في القتل والتّنكيل بالبشر، وجه ذلك الأسمر المضرّج بالدّم والزّبد وابتسامة هازئة بكلّ جبروت أوّل ما صفع وجهها، وأشعرها بالصّقيع اللافح المغروز في العظام والقلب، تكوّمت إلى جانبه دون أن تجرؤ على أن تدفن رأسه في حضنها ولو لمرّة واحدة في حياتها، كانت مغمورة بظلّ الجدار العازل حيث العفونة والظّلام والكآبة والظّلم، وكانت العودة إلى هنغاريا دون رجعة إلى هذا المكان هي الفكرة الوحيدة التي تملك عليها ذاتها، وتلحّ عليها قبل أن يقتلها الجدار كما قتل الرّجل الذي عشقته.

مَنْ أطفأ الشّمعة الأخيرة ؟!

لا تجيد التّنظير السّياسيّ أو الفلسفيّ مثل معظم المناضلين الفلسطينيين، كذلك لا تستطيع أن تقرأ أو أن تكتبَ؛فهي من مواليد القرن الماضي، ولم تتح لها فرصة للذّهاب إلى الكتّاب، فقد كان ذلك محرّماً على الفتيات في ذلك الوقت وفق أعراف اجتماعيّة صارمة، وكان قصراً على الذّكور، ومن ثم أخذتها الحياة الزّوجيّة المبكّرة والأمومة المتكرّرة لتسع مرّات متتابعة من متابعة البرامج الثقافيّة أو تعلّم القراءة والكتابة أو التفرّغ للجلسات الحواريّة السّياسيّة، ولكنّها تعرف أنّ البطولة والوطنيّة والمقاومة الفلسطينيّة للعدو الصّهيونيّ تكون على قدر الظّروف والمعطيات والملكات.

وملكتها العظمى تتمثّل في أمومتها التي تتّسع لسكان كوكب الأرض جميعهم، وتمتدّ لتحتضن الأسرى الفلسطينيين في المعتقلات الصّهيونيّة؛بدأت حكايتها مع أمومتها العملاقة عندما زُجّ بابنها البكرعبد المجيد في المعتقل الصّهيوني، وحُكم عليه بالسّجن مدى الحياة، ثم لحقه أخواه الأصغران ليغدو ثلاثتهم أسرى المعتقل المتوحّش، كانت تمضي أسبوعها تلاحق الجهات المسؤولة والصّليب الأحمر كي تحصل على تصريح زيارة لأحدهم أو لجميعهم، وقليلاً ما كانت تحصل عليه دون تكرار رفض ومماطلة وتنكيد ومراوغة لأوهى

الأسباب، ومن ثم بات من المستحيل أن تحصل على تصريح لزيارة ابنها البكرعبد المجيد الذي غُلّظت العقوبات عليه، ومُدّد حبسه الانفراديّ إلى الأبد، من ثم حرُمت من زيارة ابنيها الأصغرين بسبب الجدار الفاصل الذي قطع الأرض بينها وبين معتقليهما، فتباعدت الأرض بينهم على الرّغم من تقاربها، وأصبح العالم في فلسطين لا يُفهم إلاّ بمنطق باطن الجدار وظاهره.

ومن هذا المنطق الظّالم وجدت نفسها أمّاً يفصلها جدار إسمنتيّ أصمّ عن أولادها المعتقلين، كما يفصل الجدار نفسه آلافاً من الأمهات الفلسطينيات عن أبنائهنّ وبناتهنّ في المعتقلات.فقرّرت أن تكون إلى جانب المعتقلين الفلسطينيين ضدّ الجدار، كما صمّمت على أن تمارس أمومتها معهم، بدأت الفكرة بتجربة، ثم أصبحت التّجربة واقعها المعيش، في معتقل البلدة كان هناك ١٤٦ معتقلاً ومعتقلة، وقد بات شغلها الشّاغل أن تزورهم الواحد منهم تلو الآخر، وأن تتعرّف عليهم، وأن تكون أمّاً لهم أجمعين بدل أمّهاتهم المحرومات من الزّيارة اللّواتي لا يستطعن الوصول إليهم.

تعاطف الصّليب الأحمر مع رغبتها، وجنّد إمكاناته المحدودة من الوساطات والدّعم من أجل أن يساعدها على زيارة الأسير تلو الآخر، وكانت أمومتها عونها في هذا الأمر، كانت الشّمعة الوحيدة في حياة الكثير من المعتقلين، تحفظهم فرداً فرداً، وتسأل عن أحوالهم، وتعرف ظروفهم، وتتابع قضاياهم، وتصغي إلى شكواهم دون تذمّر

أو ملل، وتحاول ما استطاعت أن تخفّف عنهم آلامهم وقهرهم حتى باتت الأم الحقيقية لكلّ منهم، وغدت زيارتها بلسماً لكلّ معتقل، فغدت شمعتهم الأخيرة والوحيدة في ظلام معتقلهم القابض على أرواحهم الثّائرة، ونالت باستحقاق لقب «أم الأسرى».

كانت تتشفّع عند الله بهذه الأمومة الغامرة، وهذا العطاء الموصول كي يفكّ أسر أبنائها، وييسّر لها أمر الحج إلى بيت الله الحرام قبل أن يستردّ الله روحها الأمانة، ويختارها إلى جانبه حيث الرّحمة والعدل، وعلى غير متوقّع خرج ابنها الكبير من المعتقل، وهو المحكوم مؤبداً في صفقة تبادل للأسرى مع الصّهاينة، ونُفي إلى بيروت تنفيذاً لبنود الصّفقة حيث سيستقرّ هناك، وكان أوّل ما عمله هو أن سعى للحصول على فرصة لكي تحجّ والدته ووالده إلى البيت الحرام، وتكّللت مساعيه الحثيثة بالنّجاح، وكانت تأشيرة السّفر وحجز مكانين في حافلة الحجّ ونقود كثيرة أوّل ما أرسل إليها من منفاه الجديد.

فرحت «أم الأسرى» بتحقّق حلمها بالحجّ لاسيما مع اقتراب موعد خروج ابنيها الآخرين من المعتقل، وأعدّت العدّة كي تتوّجه إلى بيت الله الحرام برفقة زوجها، وطوّفت لأسابيع على المعتقلين كي تودّعهم قبل سفرها، فحمّلوها بمحبتهم وبدعواتهم لها وبرسائلهم الشّفويّة لأمهاتهم وأسرهم إن تسنّى لها في خروجها من أسر الجدار أن تقابلهم أو أن تزورهم.

عندما خرجت من بوابة الجدار نحو الحرّية متّجهة إلى بيت الله الحرام، تذكّرت أمراً واحداً، وهو الرّسائل الشّفويّة التي حمّلها المعتقلون لها، كانت هذه هي المرّة الوحيدة التي تخرج فيها منذ سنوات من أرض عزلة الجدار، ولعلّها تكون المرّة الأخيرة أيضاً قبل أن ترحل عن هذه الحياة.

حدّقت طويلاً في السّماء الممتدّة في الأفق دون قيود، وتراءت أمامها قلوب أمهات الأسرى الفلسطينيين التي تتوق إلى أخبار عن أبنائهنّ المعتقلين، وضجّت في خاطرها نصوص آلاف الرّسائل الشّفويّة موشّاة بأصوات أصحابها وبمشاعرهم وباختلاج جوارهم، وقرّرت في لحظة تضحية أن لا تذهب إلى الحجّ، وأن تستثمر أيام حرّيتها خارج الجدار في تبليغ الرّسائل إلى أصحابها.

لم يكن من الصّعب عليها أن تزجر نفسها الطّامحة إلى تحقيق حلمها في زيارة بيت الله الحرام، منحازة بذلك إلى صوت الرّحمة والأمومة في داخلها.ودّعت زوجها على تخوم الجدار وهو يقصد الحجّ وحده دونها، وهو يلوّح لها بثوبه الأبيض، ويدعو لها وله بالمغفرة.

قضت «أم الأسرى» أياماً موصولة بالتّطواف في أرض وطنها، دقّت الأبواب وفق العناوين التي تحفظها عن ظهر قلب، حتى أوصلت الرّسائل إلى أصحابها، فما تركت أمّاً إلاّ وواستها، ولا زوجة إلاّ وأسرّت لها بكلام زوجها، ولا طفلاً إلاّ وحملت له قبلات أبيه، وحفظت قسماته بعناية واقتدار كي ترسمها في مخيال والده الذي لم

يره منذ زمن.

لقد قرّت نفساً بعد أن أدّت الرّسائل الأمانات إلى أهلها، وها قد أزف موعد العودة إلى منزلها، حزمت تعبها واشتياقها إلى أبنائها الأسرى، ووقفت في طابور انتظار طويل كي تعبر بوّابة الدّخول عبر الجدار العازل، وطال انتظارها كما طال بالموجودين جميعهم إمعاناً في إذلالهم والتّضييق عليهم، فانتبذت مكاناً قريباً لتريح شيخوختها الثّمانينيّة المثقلة بهموم المعتقل والمعتقلين، وطال انتباذ جسدها مكاناً قصيّاً، أمّا روحها فكانت طائراً أبيض طاهراً يحلّق نحو ربّه في مستقرّة الأخير بعيداً عن شبح الجدار العازل بعد أن حجّت بطريقتها الخاصّة، واستعدّت للقاء ربّها الحنّان المّنان.

عندما لا يأتي العيد

إذا لفظ بصعوبة موزّعة بين مخارج الحروف المشبعة بزفير الهواء، وحشرجات دفعها خارج فمه الذي يزمّه بشدّة ليخرج منه كلمة «هاها» فهو يلفظ دون شكّ اسم ابنه هادي، لم يفكّر يوماً في أن يحاول أن يتحدّى بكمه الذي ناله عطية مجانيّة إجباريّة صهيونيّة من انفجار مدوّ لقنبلة أفقده سمعه وهو رضيع، ولم يجرّب في يوم أن يلفظ كلمة واحدة، واكتفى بالقدر القليل من الإشارات والإيماءات التي أنتجها بفعل حاجاته الضّروريّة مثل الحاجة إلى الأكل أو الشّرب أو الرّاحة أو النّوم أو قضاء الحاجة، فهو لم يتلقَّ أيّ دروس في لغة الصّم والبكم؛لبعد تلك المؤسّسات عن قريته، ولتعذّر الذّهاب إليها بسبب الحواجز الصّهيونيّة التي تطوّقه وقريته من كلّ مكان، ولكن منذ زفّت السّماء إليه فرحة قلبه ابنه هادي بعد زواج طال لعقد كامل من ابنة عمّه تمام، غدت الحياة في عينيه أجمل، وأصبح يملك سبباً مقدّساً كي ينطق اسمه ليل نهار، وإن كان نطقه له يخرج على شكل ترديد ممطوط مشبع بالمدّ لحرف الهاء، ولكن ما يعنيه في هذا الأمر أن يعرف ابنه هادي أنّه يناديه، أو يقصده بكلامه، وهذا حسبه في الحياة كلّها، فما الحياة عنده إلاّ ابنه هادي.

منذ أن وُلد هادي قبل تسع سنوات صار يملك سبباً للحياة، وهدفاً

للامتداد، والتحق سرّاً بالكتائب المسلّحة في قريته لمواجهة الاحتلال الصّهيونيّ، وتلقينه الضّربات الموجعة الواحدة تلو الأخرى عقاباً له على جرائمه وتنكيله، وحثّاً له على الخروج من وطنه السّليب، وعليه أن يفعل ذلك، فهذا الوطن ملك لابنه هادي ولأبناء الفلسطينيين لا لأبنائهم الغرباء، ابنه هادي وأبناء الفلسطينيين عليهم أن يكبروا هنا، وأن يسعدوا هنا، وأن يدفنوا هنا بعد أن يموتوا، أمّا الغرباء فلا مكان لهم في هذه الأرض، ولذلك عليه أن يبذل النّفيس والغالي من عمره ونضاله وصحّته كي يهب لابنه هادي مستقبلاً محرّراً وعادلاً دون شبح شيطانيّ اسمه الاحتلال الصّهيونيّ.

في البداية لم تتحمّس الكتائب المسلحّة الفلسطينيّة لفكرة تجنيد رجل أصمّ شبه عاجز عن التّواصل على حدّ تقديرهم، ولكن عندما وضعوه في اختبارات متعدّدة وجدوه مثالاً للشّجاعة والإصرار والعمل والتّضحية والتّكتم، ولذلك عهدوا إليه المرّة تلو الأخرى بالمهمّات الصّعبة، وكان يقوم بها بكلّ سرّية وإخلاص وتفانٍ، ولا يهمس لبشر بأمرها خلا ابنه هادي الذي كان يهمس له في أذنه اليمنى وهو نائم بكلّ ما فعله لأجله، ويطبع قبلة مديدة على جبينه النّورانيّ، ويضمّه إلى صدره بكلّ عطف وفخر به، وينام قريراً سعيداً حالماً بفجر قريب.

غداً يكون عيد الأضحى المبارك، وعيده اليوميّ المتكرّر هو أن يرى وجه ابنه هادي باسماً سعيداً عفيّاً مشافىً من كلّ مرض أو

همّ، وزوجته تحمله كباقة زهر، وتدور به على بيوت القرية، تبارك لهم بالعيد، وتطمئنّ على أحوالهم، وتحمل الحلوى إلى البيوت الأشدّ فقراً من بيوتهم، وتصلهم ببرها وحنانها وتعاطفها مع سائر أحوالهم، هو وزوجته لم يلبسا ملابس عيد جديدة منذ سنوات بسبب ضيق ذات اليدّ لاسيما بعد أن زُرع هذا الجدار العازل الذي ابتلع المزيد من فرص العمل القليلة التي كان الفلسطينيون يحصّلونها بشقّ الأنفس من هنا وهناك أينما تيسّر لهم ذلك، ولكن هادي كان يزهو بالملابس الجديدة في كلّ عيد، ولو كلّفهم ذلك بيع قطعة من أثاث البيت، أو التّنازل عن أكل اللّحم لأيام طويلة، فهذا هو هادي الغالي العزيز، وله أن يسعد، ولو كانت عيناه وعينا زوجته باكيتين حزينتين، فما العيد إن لم يسعد هادي بملابسه الجديدة؟!ويطير فيها في شوارع الحي ودروبه الصّغيرة.

في الأعياد السّابقة كان يرافقه مع أمّه إلى السّاحة الكبرى العامّة في القرية للاحتفال بالعيد مع أهل القرية، ولكن منذ أن فصل الجدار بينهم وبين السّاحة والكثير من أراضي قريتهم وبيوتها، بات يكتفي بأن يراقبه وهو يلعب على الأرجوحة الوحيدة الموجودة في الفناء الخلفيّ للبيت، ويقتسم المتعة بها مع أترابه الكُثر من أبناء الجيران؛متعتهم صغيرة، ولكن قلوبهم الصّغيرة الطّاهرة قادرة على صنع السّعادة من أصغر مسبّباتها، ولو كانت أرجوحة خشبيّة صغيرة مثبّتة على أغصان شجرة توت عجوز بحبال مهترئة.

أمّا سعادته فهي تنبع وتصبّ في قسمات وجه هادي وهو يبتسم على قدر ملء روحه وهو يلعب مع أترابه، ويستقبل العيد بغطرسة طاووسيّة وهو يتبختر بملابسه الجديدة الزّاهيّة البهيجة، يراقبه دون ملل من النّافذة الخلفيّة للبيت التي تُطلّ على مرجة الأرجوحة، ولولا وجوب أن يذهب لصلاة العصر جماعة في مسجد القرية لما كان يفارقه لحظة واحدة دون أن يملأ حواسه بحركاته وكلماته التي لا يشبع منها أبداً مهما ارتوى.

في المسجد لم يسمع صوت انفجار كبير، كما سمعه المصلّون جميعهم ؛فهو أصمّ، ولكنّه أوجس خيفة لم يألفها من قبل بشكل مفاجئ تزحف إلى نفسه بدبيب موجع، وعرف من المصّلين الرّاكضين خارج المسجد باتّجاه الانفجار أنّ مكروهاً ما حلّ بالمكان، كان الجميع يركضون باتجاه الدّوي المزلزل، وكان هو يركض معهم في الاتّجاه نفسه، ولكن باتّجاه وحيده هادي، تمنّى أن يصل إليه بأسرع وقت ممكن ليضمّه إلى صدره، وليشمّ رائحته النّدية دون توقّف، ولكن ما شاهده حال وصوله المكان أعدم أمنياته الثّكلى دون رحمة أو تمهّل، كانت الأرجوحة قتيلة على الأرض تغرق في بحر من الدّماء والأشلاء المقطّعة المختلطة بالدّم المتدفّق منها زلاليّاً رطباً حارّاً، لم يستطع أن يرى وجه هادي بين الوجوه المحوقلة بأسى، والمستنجدة بالسّماء من البطش الصّهيونيّ الذي طاب نفساً بأن يقصف أطفالاً صغاراً وهم يلعبون في صبيحة العيد، فحوّلهم في طرفة عين وسهوة قلب إلى

حطام من أشلاء ودماء.

لم يطل بحثه عن هادي بين الأشلاء المتناثرة، فقد وجد رأسه المتفحّم متدحرجاً قرب الأرجوحة القتيلة، ولم يميّزه إلاّ من عينيه الزّرقاوين اللّتين ورثهما من جدّه لأمّه الحاج عبد اللّطيف، فما كان في الحيّ طفل بعينين زرقاوين سواه، حضن رأسه إلى صدره، وزمّها، وذهب بها نحو البعيد؛فهادي يخاف من الدّم والموت والخراب!

في تلك اللّيلة لم يبكِ، ولم ينعَ موت هادي، فهادي لا يموت وإن سُجّي في القبر برأس أو دون رأس، فمثله يجب أن يظلّ حيّاً في نفس والده كي يستمرّ في النّضال حتى يتحرّر وطنه، فرحيل هادي يعني أن لا معنى للنّضال أو الأرض أو الوطن، فما حاجته بغد موعود دون ابتسامة هادي، ولذلك يجب أن يظلّ هادي على قيد الحياة ليكون عنده مبرّر ليستيقظ في كلّ صباح.

اللّيلة عنده مهمّة عسكريّة مُوكلة إليه من قبل جماعته، وهي تتمثّل في تهريب السّلاح والطّعام إلى القرية من خارج الجدار العازل الذي حرمهم حتى من لقمة الطّعام، وحاصرهم حتى في أقواتهم.

لن يؤجّل هذه المهمة، فهناك ألف هادي أو يزيد من أبناء القرية جائعين، ويجب أن يمدّهم بالطّعام، وهادي لا يقبل بأن يجوع الأطفال حداداً على اغتيال رأسه الجميل ذي العينين الزّرقاوين، ولذلك عليه أن يقوم بمهمته بكلّ التزام وإخلاص على الرّغم من احتجاج زملائه في الجماعة، وتصميمهم على أن يعفوه من هذه المهمة في

هـذه اللّيلـة نظراً للظرّوف القاسـية التي يمرّ بها نتيجـة اغتيال وحيده الصّغير، ولكنّه يأبى إلاّ أن يأكل الصّغار في هذه اللّيلة بالتّحديد.

يقـوم بمهمّتـه بإتقان، وتدخل الأسـلحة والأطعمـة إلى القرية بعد رحلـة عنـاء لعبـور التّخـوم الفاصلـة بسـبب الجـدار العـازل، يغـادر الرّفـاق المـكان بأحمالهم العزيـزة بغية أن توزّيعها على مسـتحقّيها في الصّباح، ويعود هو من جديد إلى الجدار متسـلّلاً ليصفّي حسـابه مع أولئـك الأوغـاد القتلـة الذين اغتالـوا ابنه هادي، لا يملـك إلاّ قنبلتين ومدفعـاً صغيـراً محمـولاً وجرابـاً يخصّـره، فيـه رأس هـادي المتفحّـم المتخثـر الدّم على شـعره الملبّـد الأكثّ الذي يهبّه قـوّة خرافيّة قادرة على أن تجعله يقلع هذا الجدار بأظافره الحاقدة، بسرعة خاطفة ينزع فتيـل القنبلتـين، ويحـوّل المـكان إلى جهـنم حمـراء تصطـليّ بأصوات المسـتنجدين والمحتضريـن مـن الجنـود الصّهاينـة، تنهـال الطلّقـات عليـه مـن عشـرات الجهـات، ويده على زنـاد مدفعه الرّشـاش تهب المـوت جزافـاً لكلّ من يقترب منه من الجنود، ورأس هادي يترنّح في جرابه طرباً بشجاعة والده.

عندمـا يـأتي الصّبـاح تكـون المجـزرة قـد اسـتوت عـلى أجسـاد العشـرات مـن القتـلى، وعلى جثّة رجـل بملابس فلسـطينيّة وجراب يحمـل رأسـاً صغيـراً متفحّماً، عشـرات المدرّعـات الصّهيونيّـة المعزّزة تطـوّق المـكان، وترحـل الجثّـة محاطـة بالجنـود والـكلاب، فتودّعهـا زغاريـد القريـة الشّـامتة بوجع الجنـود، ورأس هـادي المتفحّم يجهل

المصير الذي يُقاد إليه، ولكنّه لا يبالي بذلك طالما أنّه سيواجه مصير والده الحبيب.

في المساء تُوزّع الأطعمة المهرّبة على بيوت القرية جميعها، يأكل الأطفال حتى يشبعوا، ويشبع هادي في قبره عندما يأكل أطفال قريته، وفي كلّ مساء يأتي الطّعام المهرّب على ميعاده إلى أطفال القرية، ولا أحد يعرف كيف يصل الطّعام إلى بيوتهم، ولكنّهم يؤمنون بحكاية «الرّجل الأصمّ حامل الطّعام»، ويعرفون تماماً أنّ شبحاً شجاعاً لا يزال يسكن في جوار الجدار العازل، ويخوّف الجنود الحرس بجرابه ذي الرّأس المتفّحم المحروق، ويُدخل إلى القرية كلّ ما يشاء من مؤن، ولا أحد يجرؤ على منعه، وهو يصرخ بملء فيه قائلاً: «ها ها».

وادي الصّراخ

كان اسم المكان منذ سنين طويلة هو«وادي الرّمان»، ولكنّ منذ جاء الجدار العازل، وجرّف أراضي الوادي، وقلع أشجاره، وجعله بائداً خاوياً على عروشه أصبح أرضاً فاصلة بين طرفي البلدة التي أصبحت بلدتين صغيرتين بعد أن كانت بلدة واحدة ذات تاريخ طويل موغل في القدم، فغادرت البلابل الوادي بعد أن خسرت أعشاشها الوارفة في حقول أشجار الرّمان، وحمل الوادي متفجّعاً محسّراً اسم«وادي الصّراخ» حين أصبح ملعباً للأصوات المتناجية عبر الجدار العازل حين حرُمت اللّقاء أو المشاهدة أو الحديث عن قرب.

الفلسطينيون أسموه «وادي الصّراخ» تخليداً لمعاناتهم اليوميّة في الصّراخ عبر أراضيه للحديث عن أيّ أمر في ضوء حرمانهم من لقاء أو تواصل، غدا الصّوت هو ألسنتهم ووجوههم وجلودهم وقلوبهم وأطرافهم وأزمانهم ومسافاتهم وآمالهم، ففي هذا الوادي تُسمع الزّغاريد والتّرانيم والأشواق والأخبار والنّكات والأدعيّة والآيات القرآنيّة بل وبعض المقطوعات الموسيقيّة يتبادلها الفلسطينيون الذين حرمهم الجدار من حقهم الإنسانيّ المتواضع في أن يوسدوا يداً إلى يداً، وقلباً إلى قلب، وعيناً إلى عين، وأن يديروا أيّ حديثٍ إنسانيّ مهما كان محدوداً وقصيراً، ولذلك غدا الصّراخ عبر مسافة

فاصلة طويلة آخر ما يملكون من حقّهم المهدور الفاني.

في الوادي تُسمع أمّاً تحدّث ابنتها التي فصل الجدار بينهما، وعجوزاً أكلتها سنوات الضّنى والمعاناة تدعو لابنها بالعودة إلى بيته، ويعبق الدّمع في عيني من يسمع صوت طفلة صغيرة تطلب من والدها أن يعيدها إلى بيتها بعد أن علقت خارج الجدار في رحلة زيارة لدار عمومتها، وتبكي له متوسلّة أن يأخذها معه، وأن لا يردّها خائبة وحيدة، فيغرق الأب في نشيج موصول متحشرج لا يملك قوة فيه ليصوغ لها وعداً جديداً يصبّرها به، وهو يعلم أنّ تحقيقه بعيد عسير، وفي أقصى الوادي في أقرب نقاطه من السّياج الشّائك يقف صالح ملويّاً متكئاً على عكازين خشبيين ينغرزان في تجويفي إبطيه، وهو يكابد نفسه كي تنتصب واقفة، ولا تسقط إعياءً بعد رحلة كادحة من بيته حتى الوصول إلى الجدار، وهي رحلة تقتضيه زمناً أكثر من ساعتين، وإن كانت تنقضي في عشر دقائق لماشٍ بحزم وقصد، ولكنّه بالكاد يستطيع أن يجرجر نفسه ليصل إلى هنا، ويدسّ نفسه بين جموع الصّارخين، ثم ينتبذ بصعوبة أقصى الوادي ليكون في أقرب نقطة ممكنة للصّراخ المسموع من هدى تلكم الملاك الحمائميّ الأبيض الغارق ليل نهار في نقيع الموت هناك في مستشفى الهلال الأحمر في مخيم الدّهيشة حيث قابلها أوّل مرّة.

هدى تكبره بأحد عشر عاماً، ولكنّ جسدها النّحيل وعينيها الغائرتين في جمجمتها الصّغيرة، ويديها الصّغيرتين بقدر حفنة لوز

أخضر، وابتسامتها الخجولة، وزيّها الأبيض ذا الياقة المرتفعة، تجعلها تبدو أصغر من عمرها بعقد كامل، بل تبدو أحياناً أصغر منه سناً ببضع سنين، ليست جميلة بمقاييس الجمال الباذخة التّسويقيّة التّسليعيّة، ولكنّها آسرة الجمال بمقاييس الجمال الرّوحيّ، حيث طيبتها البيضاء، وقلبها الوردّي، ونفسها المنسرحة دائماً في عون مبذول دائم لكلّ من يطلب عونها لاسيما من المرضى والجرحى الذين تعجّ بهم المستشفى، لذلك يراها صالح حمامة فلسطينيّة بيضاء خُلقت كي تهدل بالتّسبيح للرّب والوطن والإنسان ليل نهار.

كان يتمنّى لو أنّه قابلها هناك في جامعته في القدس القديمة حيث كان شبلاً جسوراً لا يعرف خوفاً أو ضعفاً أو جبناً، كان الأوّل في تخصّصه في الجامعة، والأوّل في برّ والديه العجوزين، والأوّل كذلك في صفوف المتظاهرين والمحتجّين على استبداد الصّهاينة، ولكّن حظّهما غير الموفور جعلهما يلتقيان في أضعف حالاته، وأشدّها عوزاً للشّفقة والرّحمة والعون؛طلقة جرثوميّة واحدة من بندقّية مستدمرٍ[1] صهيونيّ أصابته بالشّلل الدّائم، وبحشد من أمراضّ الدّم السّرطانيّة الدّائمة، أشهر طويلة قضاها هناك على سريره في المستشفى أعزل من كلّ شيء سوى قلبها الكبير، ورعايتها التي لا تعرف فتوراً أو انقضاء أو رحيلاً.

لم يكن في حاجة إلى أن يخبره أهله على جرعات من الحياء

١. هم مستدمرون لا مستعمرون؛لأنّهم لا يعمّرون بل يهدمون.

والحـزن والعطـف أنّـه أصيـب بالشّـلل الـدّائم، ولن يسـير أبـداً على قدميه؛فهـو يعرف هذه الحالة تمامـاً، ولطالما رآها في صفوف أصدقائه وأترابه وجيرانه من أبناء الشّـعب الفلسـطينيّ، كان يعرف أنّه سـيظلّ عاجـزاً إلى الأبـد عـلى الرّغـم مـن دعـاء أمـه الموصـول لـه بالشّـفاء والصّحة؛فطلقـات العـدو الصّهيـونيّ لا تنصـاع أبـداً لأيّ دعـاء أو استجداء أو استرحام، ولكنّه كان يعرف أنّ تلكم النّظرات التي تمطره بهـا الممرضة هدى ليسـت نظرات شـفقة أو رحمـة أو واجب كما كان يصرّ عمّه أبو حسين المرافق له في المستشفى ليل نهار على تسميتها، فقلبه الذي لم يكن قد قرِع بعد قرعات العشق، يستطيع أن يدرك أنّ هناك ناراً مقدّسـة مشـتعلة في قلبها كما هي ذات أوار حارق في قلبه الصّغير العشـرينيّ الذي لم يذق من السّـعادة إلاّ النّزر منها في مخيمه الغارق في العوز والكدّ والاكتظاظ والأحلام التي لا تتحقّق.

عندما أخبر أهله بنيته بالزّواج منها، وقفوا مشـدوهين، ثم عاجلوا قلبه بنخزة لئيمة على شكل تشكيك بأن تحبّه هذه الممرّضة العفيّة، وهـو العاجـز كلّياً حتى عـن ضبط بوله فضلاً عن عجـزه عن الحركة أو عن أيّ سـلوك طبيعيّ فطريّ كمضاجعة جنسـيّة مثلاً.ولكنّه أكّد لهم أنّ حبّهما أكبر من التّوصيفات الاجتماعيّة والمعطيات الوضعيّة، باختصارهو يعشـقها، وهي تعشقه، ومن يعشق لا يعرف مستحيلاً أو مانعـاً، ولذلك سـيكون معها إلى الأبد، وهـي قرّرت صراحة وبوضوح أن تكون معه حتى آخر لحظة من حياتها، مضحّية بحقها في الجنس

أو الإنجاب انتصاراً لقلبها على مطالب جسدها وحياتها وعالمها.

رثى أهله لسذاجة ثقته في هذا العشق المأمول، وتركوا الأمر للوقت ليداويه بطريقته، وكثيراً ما تكون مداواته مؤلمة وكاوية، ولكنّهم تفاجأوا عندما علموا علم اليقين أنّ الممرضة هدى توافق على هذا الزّواج، وتعدّه الكفيل الأوحد لسعادتها، وباركوا هذا الزّواج بحملة تبرّعات من الأسرة لجمع مهر العروس، فجمعوا بصعوبة ألف دولار كي تكون أوّل عون لهما على الزّواج، وكاد الأمر يتمّ في القريب بعد أن غادر صالح المستشفى، وعاد إلى بيته لاستكمال تجهيز غرفته في بيت أمّه حيث سيكون عشّ الزّوجيّة المنتظر.

وجاء الجدار العازل في ليلة وضحاها ليحبسه في بيته، ويحبس حبيبته في مستشفاها بعد أن قطع الطّريق بينهما، وجعل الأرض أرضين، وصنع بينهما برزخاً من الحرمان والقطيعة، ليكون كلّ منهما حبيساً خلف جهة من الجدار، حاول دون جدوى أن يستقدم حبيبته إليه، أو أن يذهب إليها عبر تصاريح علاج يحصل عليها بمعونة الصّليب الأحمر، ولكنّه ما فتئ يخفق في ذلك المرّة تلو الأخرى، حتى أدرك أنّه حُرم من هدى إلى الأبد.

الطّريقة الوحيدة للتّواصل معها كانت عبر الصّراخ في واديه الحزين، تأتي هي كلّ صباح، ويجرّ نفسه منذ الفجر حتى يصل إليها في الموعد المضروب كي يقف مهدوماً على عكازيته بالقرب من الجدار الشّائك، ويصرخ بأعلى صوته: «هدى أنا أحبّكِ...كِ...كِ».

فتـردّ عليـه بجرأة عاشـقة لا تعرف خوفاً، ولا لومة لائم في عشـقها: «وأنا أحبّك أكثر يا صالح».

فيسألها بلذّة من يطرح سؤاله الشّهي الحلو لأوّل مرّة: «هل تقبلين بالزّواج بي؟»

فتردّ عليه بفرحٍ شقيّ مرح: «نعم، أقبل بالزّواج بكَ».

يسـعد صالح بموافقتها، وكأنّها يسـمعها لأوّل مرّة في حياته، ويشدّ عـلى الألف دولار التي يدفنها في عميق جيب بنطاله الكتّانيّ القديم، فـلا تفارقـه ليل نهار على أمل أن ينقدهـا في القريب المداهم لحبيبته مهراً لها، ويبتسـم وهو يحلم بملاكه الأبيض وهي ترتدي ثوب الزّفاف الأبيض، وتجري نحوه دون جدار عازل جبّار لا يرحم قلب عاشقين، ويصـرخ بعقيـرة مشـدودة كوتـر قوس متحفّـز للانطـلاق: «هدى أنا أحبّكِ...كِ...كِ»

الغروب لا يأتي سرّاً

يقول له صديقه معزّياً ومواسياً له: «لا تجزع يا صديقي، فعند كلّ إنسان أمر يخشاه.أتصدّق أنّ قائدنا في الجّيش يخاف من الدّم، ويفزع منه أشدّ الفزع على الرّغم من أنّه ترأس أكثر من عمليّة إبادة جماعيّة للفلسطينيين؟!»

يردّ عليه بخجلٍ من حالته: «ولكنّني لا أخشى الدّم، بل أستمتع به جداً، وقمّة فخري أن أسفحه من رقاب الفلسطينيين المخرّبين الذين يعيثون فساداً في دولتنا، ولكن يا للعار، أنا أخشى غروب الشّمس، أصاب بهلع عظيم عندما تغيب الشّمس، وتتركني وحيداً في ظلمة هذا الكون، فأتخيّل أنّ كلّ الفضاء حولي يعجّ بالأرواح الشّريرة التي تطاردني بمصائدها النّاريّة، وتحاول أن تنهش جسدي بمعاولها المسنّنة، وتسعى لخطف أرواح أبنائي، لتجرّها إلى الجحيم، هذا أمر رهيب، أكره اللّيل، وأخشى لحظاته التي أقضيها في صراع مع شياطين وهميّة لا يراها سواي، ولذلك تمعن في تعذيبي».

-«حالة غريبة بحق.عليك زيارة طبيب نفسيّ لاستشارته في هذا الشّأن» يقول صديقه معلّقاً على حالته.

-«عرضتُ نفسي على أكثر من طبيب نفسيّ، ولكن دون فائدة، فلا أحد منهم يستطيع أن يساعدني، ولا الشّمس تتشبّث بمكانها

في السّماء، ولا الغروب يأتي سرّاً، فلا يوقظ الأرواح الشّيطانيّة التي تتفلّت من عوالمها تقصد أن تطاردني بعذابها المسوم».يجيب الجنديّ الصّهيونيّ بهلع ووجع.

- «ولكن لماذا؟ ما سبب هذه الحالة المرضيّة النّادرة».يسأل صديقه من جديد؟

- «لا أعرف، بحقّ أنا لا أعرف لها سبباً، ولكّنني أتمنى أن يأتي الغروب سرّاً». يهتف الجنديّ بنبرة رجاءٍ وتمنٍّ.

يصمت الصّديق، وتزوغ عيناه بعيداً نحو الأفق، ونحو ذلك اليوم الذي يحاول أن يبتلع ذكراه لحظة بعد لحظة، فيخفق في ذلك، ويأتي الغروب ليخزه بذكراه التي تقضّ مضجعه، وتحوّله إلى ملعون سيزيفيّ لا يعرف عذابه نهاية أو عقابه توقّفاً، يومها كانت الشّمس تكاد تنزلق خلف الجدار العازل لتردي المكان في المزيد من الظّلمة والوحشة، وكان هو الحارس الليليّ المسؤول عن حراسة البّوابة في المساء بعد عناء يوم طويل من المراقبة، وتفتيش العابرين، والتّفنّن في تعذيبهم وتعطيلهم وتوقيفهم وتأخيرهم وإذلالهم، فهو متورط معهم في هذه اللّعبة الظّالمة بقدر تعذيبه لهم؛إذ لا يمكن أن تكون مُعَذِباً دون أن تكون مُعَذَباً!

وجاءت تلك المرأة الفلسطينيّة لتعبر البوّابة دخولاً إلى منطقة سُكناها في المدينة المعزولة التي طوّقها الجدار من كلّ مكان كشريط سحريّ شرير خانق، كانت تجرّ ستّة أطفال، وتحمل في بطنها تلاً

لحميّاً يمور بجنين قد أزف موعد خروجه إلى الحياة، كانت مرهقة وبادية التّعب، وجد لذّة خاصة مستفزّة في مشاكستها، وتعطيلها وتلويعها وأبناءها الصّغار قبل أن يسمح لها ولهم بالعبور من البوّابة، وعندما ردّته بشموخ لا يُتوقّع من قسماتها الكسيفة، ومن شحوبها البادي، ومن لهاثها الموصول، قرّر أن يبالغ في تمتّعه بتعذيبها بأن يمنعها من العبور من البوّابة إلى أن يخيّم ظلام اللّيل، ليتشفّى ببؤسها وهي تفترش الأرض، وتتلحّف بالسّماء وبنوها على باب الجدار حتى الصّباح.

كان يتوقّع أن ترضخ لذلّه، أو أن تتضرّع له من أجل العبور، ولكنّها لم تفعل ذلك، بل تفلت في وجهه غير آبهة بجبروته، وجمعت أبناءها على عجل، وأدارت ظهرها لتعود بهم من حيث أتت.اشتعلت نيران الغضب في صدره الصّدئ، وأطلق حشداً من رصاصات نزقة باتّجاهها، فخرّق جسدها وأجساد بنيها في لحظات، تكوّموا جميعاً على الأرض غارقين في بركة دم حار من جداول أجسادهم، وغربت الشّمس تماماً هروباً من هذا المشهد المروّع، وبقيت عينا تلك المرأة تشخصان نحو السّماء، وترفضان أن تُغلقا، وتتوعدان بانتقام، هكذا فهم نظراتها، وصمّم على أنّها تحدّثه وتتوعدّه بالثأر، وعندما عجز الجنود عن إغلاق عينيها انهال عليها بوابل جديد من الرّصاصات حتى بدا بطنها كمصفاة معدنيّة قديمة، ولكّنها على الرّغم من ذلك ظلّت شاخصة العينين تتوعدّه بانتقام قريب.

من يومها بات غروب الشّمس يروّعه؛إذ يكشف له عن عينيها الشّاخصتين، ويتوعّده بالعذاب، وزاد الطّين بلّة حمل زوجته بطفلهما الثّالث، هو يعرف أنّ الموت قريب، وأنّ الانتقام قد أزف، لابدّ أنّ الانتقام سيكون من جنس العمل، ولذلك لا بدّ أنّ الأرواح الشّريرة ستفتك ببنيه وبزوجته الحامل لتحرق قلبه كما أحرق قلب ذلك الأب الفلسطينيّ على زوجته وأولاده.

«ولكن ما ذنب زوجتي وأطفالي الصّغار بما اقترفت يداي؟!» يسأل الأرواح الشّريرة التي تطارده، فتردّ عليه بسؤال تنفخه في وجهه بلسان لهيب: «وما ذنب تلك المرأة الفلسطينيّة وأولادها الصّغار لتقتلهم دون رحمة؟!»

- «لا...لا... لن يقتل أحد أيّاً كان زوجتي وأولاديّ الصّغار، دعوهم يعيشون، دعوهم يأكلون ويشربون ويكبرون، هم سيموتون في يوم ما، ولكن ليس الآن؟» يرجو الجنديّ الأرواح متضرّعاً.

تجلجل الأرواح بضحكات خشنة، وتقول بحزم:

- «بل عليهم أن يموتوا الآن».

- «لا...لن يكون ذلك أبداً، ابنتي الصّغيرة راحيل تخاف من الموت والقبور، أحبّها أكثر من كلّ البشر، هي أشدّ رقّة من نسمة صيف، لن يقتلها أيّ أحد، ويجب أن تعيش مديداً وأن تسعد كثيراً».يزمجر الجنديّ، ثم يغادر غرفته كالمجنون حاملاً مدفعه الرّشاش، ويهبط سلّم البيت سريعاً متوجّهاً إلى المطبخ حيث يجد

زوجته الحامل وطفليه متحلّقين حول مائدة العشاء، يشيّع دهشتهم بلا مبالاة، ويشرع يخرّقهم برصاصات مدفعه مبتدئاً بابنته راحيل التي تخاف الموت والقبور، ويحبّها أكثر من البشر أجمعين، وعينا المرأة الفلسطينيّة القتيلة الشّاخصة العينين تقدحان شرراً، وهو يصرخ بهستيريّة: «هؤلاء زوجتي وطفلي، أنا أحبّهم، لن يقتلهم أحد سواي، هيّا اغربي عن وجهي أيّتها المرأة الملعونة».

سلالة النّوْر

دم سلالته المباركة يتدفّق في أعماقه ووجدانه وشراينه، فيدفع حلمه إلى أن يكبر من أجل أن يسافر إلى القاهرة ليستكمل علومه الإسلاميّة في الأزهر الشّريف ليفقّه نفسه، وينفع أمّة المسلمين، منذ أجيال طويلة رجال أسرته الواحد تلو الآخر يحملون راية الشّريعة الإسلاميّة، ويسمّون الشّيوخ في المدينة، أبوه وجدّه ورجال أسرته جابوا بقاع الوطن الفلسطينيّ، وحملوا لواء الدّين والإحسان والخير والبناء، وهذه البذرة الصّالحة تنمو في أعماقه منذ وُلد، فمنذ صغره هو مفطور على الصّلاة والصّوم والعبادة والبرّ والإحسان، وقد حفظ القرآن الكريم كاملاً منذ طفولته، وكثيراً ما صلّى بالجماعة إماماً في صلاة الفجر، برامج حياته كافّة مكيّفة وفق هدف واحد، وهو الذّهاب إلى الأزهر لاستكمال علومه الإسلاميّة، حتى زهر خطيبته اختارها وفق هذا البرنامج، فقد كانت صالحة عابدة مثله، تحفظ الكثير من أجزاء القرآن، وتتوق مثله إلى دراسة العلوم الإسلاميّة في الأزهر الشّريف.

كان عليه أن يحزم نفسه وكتبه، ويسافر إلى القاهرة بصحبة خطيبته بعد أن يتزوّجها كي ينخرطا في دراسة العلوم الإسلاميّة بعد أن حصّل لهما قبولاً في الجامعة، ولكنّ الجدار العازل الذي وُلد من رحم شيطانيّ وقف حاجزاً أمامهما، ومنعهما من السّفر خارج مدينته

القديمة، وحطّم أحلامهما، وغيّر مشاريع حياتهما إلى الأبد.

وعلى الرّغم من ذلك كان من الممكن أن يقبل بواقعه الجديد لو لم يسرق الجدار معظم أصدقائه، ويقتلهم الواحد تلو الآخر على تخومه وبوّاباته، عندها قرّر أن يطعم سدنة الجدار للنّار والموت، هدوؤه الغامر أجاد أن يُخفي مخطّطه المزمع، وفي اللّحظة المناسبة كانت الضّربة القاسمة، اختارها أن تكون في ليلة زفافه على المرأة التي اختارها شريكة لحياة الضّنك المريرة، خرج منذ الظّهيرة إلى صلاة الظّهر، وبعد أن أدّاها بأناة وخشوع، خرج إلى مراده، كان يحمل في كيسه الصّغير مسدّساً ومجموعة من القنابل، ويستعيد في ذاكرته تفاصيل خطّته المرسومة للتّسلّل إلى المعهد الدّيني اليهوديّ الدّاخلي، والدّلوف إلى قاعة التّدريس الرّئيسيّة ليوسعهم موتاً، انتقاماً منهم لأصدقائه الذين قتلوهم، ولحلم دراسته الذي أجهضوه في تبرعمه، ولأرضه التي قسمها الجدار دون رحمة أو وجه حق، ولخطيبته التي يعشقها، ولن يستطيع أن يصطحبها معه إلى الأزهر الشّريف كما وعدها مراراً وتكراراً.

كان أمر الدّخول إلى المعهد سهلاً بمساعدة ملامحه الخلاسيّة الشّقراء التي يملكها وراثة عن جدّة أبيه ذات الأصول التّركيّة التي تزوجها جدّه عند دراسته العلوم الإسلاميّة في القاهرة قبل عقود طويلة، وعاد بها إلى مدينته القديمة حيث عاشت وماتت ودُفنت.

بخطوات ناقرة بخفّة على الأرض كرذاذ على ماء وصل إلى القاعة

الرئيسيّة، وبسرعة خاطفة شرع ينشر الموت على الجميع بقنابله وبمسدسه، لم يدركه الحرس برصاصهم إلاّ وكان قد أرسل الجميع إلى جحيم الموت، ثم استسلم إلى جنّته الخضراء الموعودة، وحلّق بأجنحة من نور نحو البعيد، وترك جثته لهم ليركلونها بأقدامهم، ويمثّلون بها، ويسجنوها أياماً في حافظة مبرّدة قبل أن يسمحوا بدفنها على عجل في جُنح اللّيل، وكأنّها فعل محظور البوح به.

لم يزفّ إلى عروسه، ولم تُزفّ إليه، وبقيت في ثوبها الأبيض تنتظره طويلاً دون أن تصدّق أنّه لن يبرّ بوعده لها، ولن يتزوّجها، بل ولن يعود إليها أبداً، فليس من عادته أن لا يبرّ بوعد قطعه على نفسه، ولكن يبدو أنّه لن يستطيع أن يبرّ بوعده لأوّل مرّة في حياته، كذلك لن يستطيع أن يعود إليها، لذلك عليها أن تذهب هي إليه، وإن كان هو من سلالة العلماء الأبرار، فهي من سلالة الشّهداء الطّاهرين، فليس هناك في أسرتها بيت لم يقدّم شهيداً؛فهي ابنة شهيد، ووالدها كان ابن شهيد، وجدّها ابن شهيد، بل ابنها المنتظر الذي لم تحظَ به منه لا بدّ أنّه سيحلم بالاستشهاد، فما عليها إلاّ أن تكون شهيدة أيضاً؟

خلعت ثوبها الأبيض إلى ميقات، وعندما حان الوقت المنتظر، استحمّت، وتمشّطت، وتعطّرت، وتزيّنت، وتحزّمت بحزام ناسف، ويممتْ نحو الجدار الفاصل الذي أخذ منها كلّ من تحبّ، أُمرت بالوقوف على عتبة بوّابته، لكنّها لم تفعل، وفي اللّحظة المناسبة، تحولّت إلى جمرة نار تكوي كلّ من حولها من جنود صهاينة، وتهزأ من

الجـدار الـذي انهارت أجزاء منه من شـظايا حزامها النّاسـف، وحمل على أكتافه مكرهاً طرحة عرسها ملوّحة بالأفق لروحها التي تحجل في دربها نحو السّماء لتلحق بسلالتها النّورانيّة الطّاهرة.

ما قاله الجدار

(١)

السّجان مسجون أيضاً

كان يبدو العمل له ممتعاً، ومسلّياً، فليس هناك متعة أكثر من أن يقف على بوّابة يراقب منها الخارج والدّاخل، ويمارس عبرها متعته السّاديّة في تعذيب النّاس والتّنكيل بهم، استمتع سنوات طويلة بهذه اللّعبة العمل؛إذ كان يظنّ أنّه السّجان المعذّب للفلسطينيين، ولكن عندما أيقن أنّه لا فرق كبير بين أن يُسجن المرء خلف الجدار أو أمامه أو في بوّابته، انتحر بجرعة إضافيّة من المخدّرات.

(٢)

قبر الرمثاويّ لا يُضام

لا أحد يعرف على وجه الدّقة اسم الشّهيد الرّاقد في هذا القبر، ولكن الجميع يسمّونه قبر الرّمثاويّ، فهم يعرفون أنّ صاحبه جاء من مدينة الرّمثا في شمال الأردن ليجاهد إلى جانب الفلسطينيين، فقضى نحبه في

هذه المنطقة، فُدفن في بستان البيت الذي كان يحوزه، ويدافع عن أهله ساعة استشهاده، القبر ظلّ محراب البيت، وعامود فخر أهله، بل سمّي البيت مع الوقت ببيت الرّمثاويّ، ولقّبت الأسرة نفسها بآل الرّمثاويّ.

عندما غُرز الجدار العازل في خاصرة الشّعب الفلسطينيّ بتر القبر عن البيت، فكان البيت في شرق الجدار، والقبر في غربه، حزن أهل البيت أشدّ الحزن لحرمانهم من القبر، وحزن القبر لنفيه عن عائلته التي جاورها سنين طويلة، ولأنّ الرّمثاويّ لا يُضام، فقد حمل قبره، وانتقل به إلى جوار البيت في النّاحية الأخرى من الجدار، وفي الصّباح كان من جديد في بستان البيت ينتظر أهله ليسقوا زهوره النّابتة عليه، غير آبه برغبة الجدار الملعون!

(٣)

لا قصة حبّ للجدار العازل

جاء هذا الصّحفي الأمريكيّ ذو الأصول اليهوديّة من أقصى ولايات أمريكا بُعداً من أجل أن يقوم بالوظيفة التي أُسندت إليه بحكم شهرته الصّحفيّة وإنجازاته الإعلاميّة الجريئة، كان عليه أن يعاين تجربة الجدار الفاصل؛ليكتب عنه المقالات والقصص الدّاعمة لكلّ من يرى وجوده في هذا المكان عدلاً وضرورة لحماية اليهود الغاصبين في أراضيهم المسلوبة من الفلسطينيين.

الحقيقة أنّه معنيّ بالمبلغ المالي الكبير ذي الأصفار الكثيرة المُتفق عليه مقابل هذا العمل الدّعائي الإعلاميّ العاري من الحقيقة أو العدل، ومن قال إنّه يبالي بالحقيقة وبالعدل؟! المال كلّ همّه، ورصيده المتنامي في البنك جنّة حياته.

لكن مشكلته الكبرى تكمن في أنّ قلمه يكتب ما يشاء وعلى هواه دون الانصياع له، حاول أن يكتب قصّة حبّ واحدة في ظلّ هذا الجدار، فعجز عن ذلك، فكتب مئة قصة حزن بسبب هذا الجدار، ومزّق أمر الدّفع (الشّيك) ذا الأصفار الكثيرة، وشرع يعيش قصته الأولى مع الحقيقة، فكان في الصّف الأوّل إلى جانب المتظاهرين الفلسطينيين ضدّ هذا الجدار، وتصدّرت صوره وسائل الإعلام العالميّة تحت عنوان: «صحفيّ أمريكيّ يقضي نحبه برصاص قوات الاحتلال الصّهيونيّ».

(٤)

بوّابة واحدة لا تكفي

ليس لهذه البلدة منفذ على الدّنيا سوى هذه البوّابة اللّئيمة في الجدار العازل، إن أُغلقت، وكثيراً ما يحدث ذلك، فأهل البلدة يغدون مجرد سجناء في سجن كبير، جدرانه الجدار العازل، وسقفه السّماء البعيدة.

في كلّ صباح كان يقود شاحنته القديمة بحملها من العمّال الفلسطينيين نحو البوّابة ليواجهوا كبد ساعات من الانتظار والذّل على أمل أن يُسمح لهم بمغادرة البوّابة، لعلّهم يعودون إلى عائلاتهم بأقوات يومهم التّعس، وهو يظلّ قعيد الأرض ينتظر أن يسمح له الجنود بمغادرة المكان، ليعود إليها من جديد في اليوم التّالي.

بوّابة واحدة لا تكفي لعبور أولئك العمّال الفلسطينيين كلّهم، حتى عندما قتل مستدمر لعين عشرين عاملاً منهم على البوّابة بسلاحه الرّشّاش، فقد ظلّت البوّابة الوحيدة لا تكفي، لذلك فقد ركب شاحنته، وأسرع بها، وهوى بها على البوّابة، فخلعها، وحطّم جزءاً من الجدار، وسحق بعض الجنود تحت عجلات شاحنته، فوجد الأرض أرحب دون بوّابة أو جدار أو جنود.

(٥)

لا قانون ضدّ الأقدام العائدة

مرض السّكري أكل القدم اليمنى لمؤّذن الجامع في الحارة القديمة، قيل له إنّ من الممكن أن تُصنع له قدمان من اللّدائن الطّبيّة الصّلبة، ولكن هاتفاً في المنام صاح فيه إنّ عليه أن يصنع له قدمين من السّنديانة الكبيرة في أرضه التي تقع الآن خلف الجدار العازل، حاول كثيراً أن يعبر البوّابة، وأن يصل إلى أرضه، ولكن دون جدوى، ففي

كلّ مرة كان الجنود يردّونه رداً قبيحاً.

ظلّ يحلم بالقدم الخشبيّة من السّنديانة، وفي لحظة حلم سرقه الموت، قدمه اليتيمة قرّرت أن تحقّق الأمنية، انشلعت من جسده بلين ودعة، وسارت في الزّقاق القديمة التي تحفظها عن ظهر قدم، وعبرت بوّابة الجدار دون أن يوقفها أيّ جنديّ صهيونيّ، ويمّمت نحو السّنديانة المعمّرة في البستان الجبليّ، وكبّرت: «الله أكبر».

(٦)

الخيل الأصيلة تعود دائماً إلى أهلها

في المعتقل الصّهيونيّ مارسوا ضدّهم أعتى أنواع التّعذيب الجسديّ والنّفسيّ، ولم ينفكوا عنهم إلاّ عندما جعلوا منهم جواسيس لهم، فلا أحد يشكّ في أنّ صبية صغاراً قد يكونون جواسيس على أهلهم وجيرانهم وشعبهم. ولذلك أخرجوهم من المعتقل بهذا الشّفيع المخزي.

نقلوا إلى الجنود الصّهاينة الكثير من الأخبار الصّغيرة حول الثوّار والمتظاهرين من الفلسطينيين، ثم نقلوا إليهم تفاصيل أكبر عمليّة مقاومة سيقوم بها الثّوار الفلسطينيون، وأمدّوهم بالمعلومات ليحاصروا عشرين بطلاً من أبطال الثّورة، ليبيدوهم في أرض العمليّة الفدائيّة قبل أن يقوموا بها، أخذوا مبلغاً كبيراً مقابل هذه الوشاية الدّسمة.

في الوقت المحدّد للعمليّة الفدائيّة كان الفندق الهدف مدجّجاً

بالجنود الصّهاينة والآليّات في انتظار إلقاء القبض على الثّوار، ولم يطل بهم الانتظار، فقد جاءتهم استنجادات ملحّة وعاجلة من معسكرهم الذي أُبيد عن بكرة أبيه على أيدي الثّوار الذين خدعوهم عبر المعلومات المضلّلة من خيلهم الصّغيرة الأصيلة التي لا يمكن إلاّ أن تعود إلى أهلها.

(٧)

الموتى لا يرحلون

قال الضّابط الصّهيونيّ بسحنةٍ تمساحيّة ولؤم قنفذ أجرب: «لا أحد سيبقى في هذا المكان، الجميع عليه أن يرحل إلى ما خلف الجدار، الجميع بلا استثناء سيرحلون الآن إلاّ الموتى سكّان القبور».

ضحك العجوز الفلسطينيّ من جهل الضّابط، وتمدّد على أرضه، وقال: «إذن هنا أموت».وأسبل عينيه، وراح في سبات أبديّ.

اقترب الضّابط من العجوز ليحرّكه، لكنّه لم يقدر على ذلك؛ فقد تباعدت الأرض به، وغارت بالعجوز في باطن طبقاتها، وغيّبته عن العيون.

(٨)

طائر الفينيق حقيقة لا أسطورة

منذ صغره يحلم بأن يكون طائراً بجناحين يحلّقان نحو عنان السّماء، عندما كبر قليلاً بات يحلم بأن يصبح طيّاراً يجوب العالم بطيّارة زجاجيّة نفّاثة، ولكن عندما كسّروا له عظام يديه في المعتقل الصّهيونيّ كي لا يحمل من جديد العلم الفلسطينيّ في المظاهرات ضدّ الجدار العازل، وغدا عاجز اليدين قرّر أن يصبح طائر فينيق في النّار، ولا يحترق، يطير في السّماء، ولا يغادرها، ضمّ يديه العاجزتين بضعف

على العلم الفلسطينيّ بعد أن وقف على أعلى مطلّ جبليّ في مدينته، وفرد كتفيه، وطار، وحلّق دون أن يهبط من جديد على الأرض، وخيّم العلم الفلسطينيّ على الأفق، وغاب الجدار العازل في ظلّه!

(٩)

المجانين ضدّ الجنون

«لا يفهم المجانين إلاّ المجانين مثلهم».هذه هي جملته الوحيدة التي يفسّر بها قدرته السّحريّة على اجتياز الجدار العازل دون عبور بوّابته.

هو من مجانين القرية العتيقين الذين غدوا من آثارها ومعالمها وأوابدها، لا أحد يعرف متى بدأ جنونه أو لِمَ؟ ولكنّهم جميعاً في قريته يعدّونه من عقلاء المجانين إن جاز التّعبير؛فهو لا ينطق إلاّ حقّاً، ولا يتنبّأ إلاّ بآتٍ.

عندما بُني الجدار العازل أمطره بوابل من السّخرية، وقال مواسياً الجميع: «لا تخافوا، هذا الجدار ليس أكثر من جنون، ولا أحد يخشى مجنوناً، بل إنّ المجانين عينهم ضدّ الجنون»، ومنذ الوقت تغلّب على الجدار بسلطة سحرٍ لا يعرفه أحد، وظلّ حرّاً خارج نطاق سلطة الجدار، يخترقه متى شاء، ويعود إلى القرية عبره متى شاء حاملاً الحلوى والسّمك الطّازج من سواحل عكا ويافا وغزّة.

(١٠)

الموت يساوي بين الأشياء

حياة الإنسـان هي الأثمن في هذا العالم، هذا ما تعلّمه من أبويه ومن مدرّسـيه في كليـة الطّب البشـريّ، وما كان ليخمّـن أنّ رحلة ميدانيّة واحـدة خـارج كلّيته سـوف تعلّمه ما ينسـف بـه ما تعلّمـه كلّه طوال حياته؛كانت الرّحلة هي مرافقة ميدانيّة مع طواقم عسكريّة صهيونيّة في إحـدى جولاتهـا في أراضي الفلسـطينيين خلـف الجـدار العـازل، يومها وقع جريح فلسـطينيّ في أيدي الجنود بعد مواجهات دامية في باحة أحد المساجد القديمة، كان يتوقّع أن تُقدّم له الإسعافات الأوليّة من قبيل الإنسـانيّة والأعراف الدّوليّة لمعاملة الأسـرى، ولكنّه فوجئ بأستاذه الجامعيّ في مادة التّشريح يقدّ جزءاً من بطنه بمشرطه وسط صـراخ رعـديّ من الجريح، في حين تذهب اسـتغاثاته المحزنة أدراج الرّيح دون مجيب، ثم يشـرع يعطيهم درسـاً حيّاً على تشـريح إنسـان حـيّ لا عـلى جثة قديمة متعفّنة، يومها تقيّـأ مبادئه جميعها على أرض المـوت، وأيقـن أنّ الغاية هي الأثمن في هذا الكـون! وإخلاصاً لمبدئه الجديد الوليد فقد شرع يقتل كلّ جريح صهيونيّ يقع بين يديه عندما عُيّن طبيباً في المستشـفى العسـكرّي، ليبيع أعضاءه سـرّاً لمن يدفع له المال الوفير، فلا قيمة عنده للحياة، والمال هو الغاية الكبرى في هذه الحياة.هذا ما تعلّمه في رحلته الميدانيّة الوحيدة إلى الجدار العازل.

(١١)

ثورة العصافير خارج التّاريخ

لأنّ البشر يؤرّخون الأعوام بأحداثهم الخاصّة المهمّة، فهم يجهلون تاريخ العصافير الذي يقول: «كانت العصافير تعيش بأمن في غابات وحقول وسهول فلسطين، إلى أن جاء العدوّ الصّهيونيّ، وقطع الأشجار، وجرّف الأراضي، وبنى جداراً عازلاً بين البشر، لا تعرف الطّيور سبباً لوجوده، ولا حقّاً له ليحرمها من أعشاشها وأوطانها.

قيل لها إنّ البشر سوف يردّون حقّها عليها، ولمّا طال بها الانتظار، شنّت حرباً شعواء على الجدار، وبضربة واحدة من صدورها المجتمعة في جُمع قوّة ضاربة واحدة دكّت الجدار على الغاشمين الصّهاينة، واستردّت أرضها، وبنت أعشاشها من جديد على الأشجار النّامية على رفات الأشجار المقطوعة، وكتبت لها تاريخ نصر تحتفي فيه في كلّ عام.

(١٢)

على الجدار أن يرحل في النّهاية

حدّق الجدار العازل في حياته المعيشة، فوجد نفسه جداراً كريهاً، من باطنه المظلوم، ومن ظاهره الظّالم، فكّر ثم قرّر ثم دبّر، وفي الصّباح استيقظ الفلسطينيون والصّهاينة فلم يجدوا الجدار، فقد رحل دون عودة رافضاً أن يظلّ شريكاً في هذه الجريمة النّكراء.

بعيداً عن الجدار

البوصلة والأظافر وأفول المطر

إن كان اسمك هاشماً، وكنتَ تملك بوصلة نحاسيّة قديمة مربوطة بجيبك بخيط صوف أزرق غليظ، فلا تفارقه، وكنتَ تجزمُ بأنّك ستموت في أشدّ أيام مربعانيّة[1] الشّتاء برودة، وكنتَ تدسّ يديك في غالب الأحيان في جيبي معطفك أوفي جيبي بنطالك كي لا يرى أحد أصابع يديك العاريتين من الأظافر، فأنتَ بلا شكّ هاشم النتّيفيّ[2]. الكثيرون يعرفونه ويجهلونه في الوقت ذاته؛كان اسماً بلا وجه لسنوات طويلة، فطوال سنين سجنه الطّويلة في غياهب المعتقل الصّهيونيّ كان يذكره أفراد عائلته دون انقطاع باسم البطل، وكان يقرن اسمه دائماً بجملة «فكّ الله أسره».

---

١. أيام المربعانيّة :هي عند العامّة الأيام الأربعون الأشدّ برودة في فصل الشّتاء.

٢. نسبة إلى قرية بيت نتّيف: تقع إلى الشّمال الغربيّ من مدينة الخليل، وتبعد عنها ٢١ كم، وترتفع عن سطح البحر ٤٢٥م، وتقوم على قمّة جبل في المنطقة الغربية من جبال الخليل.تبلغ مساحة أراضيها ٤٤٥٨٧ دونماً. وقُدر عدد سكّانها عام ١٩٣٢ بحوالي (١١١٣) نسمة، وفي عام ١٩٤٥ بحوالي(٢١٥٠) نسمة، وفي عام ١٩٤٨بلغ عددهم (٣٤٩٩) نسمة.قامت المنظّمات الصّهيونيّة المسلّحة بهدم القرية، وتشريد أهلها البالغ عددهم عام ١٩٤٨ (٣٤٩٩) نسمة، وكان ذلك في١٠/٣١/ ١٩٤٨.ويبلغ مجموع اللاجئين من هذه القرية في عام ١٩٩٨ حوالي (١٨٩٩٥) نسمة.وقد أقام الصّهاينة على أرضها مستدمرة (نتّيف هلامدة) ١٩٤٩، ومستدمرة(افيعيزر) ١٩٥٨، ومستدمرة (روجيلت) ١٩٥٨، ومستدمرة (نفي مخائيل) ١٩٥٨.وتُعدّ القرية ذات موقع أثريّ يحتوي على خربة أم الرّوس وخربة أم الحاج والنّبي بولس واليرموك والعبد وجداريا والشّيخ غازي والتّبانة وغيرها.

كان يتجسّد في مخيلتي حينها على شكل فارس أسطوريّ قامته ممتدة حتى السّماء، ويداه مغروستان في الأرض على شكل زيتونة ألفيّة، وعيناه مسكونتان بأسراب الحمام البريّ البغداديّ، كان ـ في نفسي ـ أكبر من أنّ أتمنّى أن ألقاه، وبقيت أرفض أن أصدّق أنّ الحاجة وطفة المتكوّمة في ثوب فلسطينيّ أزرق قديم فيه آثار دارسة لقصب ذهبيّ، والمتلفّعة بشالٍ كان أبيض في يوم قد نُسي متى كان هي أمّه التي ولدته، وحملته تسعة أشهر في أحشائها قبل أن يسرقه العدّو الصّهيونيّ من حضنها صبيّاً صغيراً، ويزّج به في غياهب المعتقلات بتهمة الشّروع في قتل مستدمر استولى على بيّاراته، وشرع يخلع أشجارها الواحدة تلو الأخرى بذنب أنّ زارعها فلسطينيّ!

كنتُ أضنّ على أيّ امرأة بشريّة أن تكون أمّه، وأرى أنّ أمّاً أسطوريّة هي من تليق به؛فهذا البطل الغائب الذي سمعتُ الكثير من القصص عن شجاعته لا تليق به إلاّ أمّاً بعظمة الزّباء أو أمّ سيف بن ذي يزن أو أليسار أو شجرة الدّر، أمّا الحاجّة وطفة المقتضبة في نحو خمسين كيلو غرام وفي مئات خطوط الكبر في وجهها أنّى لها أن تلد كائناً أسطوريّاً مثل هاشم؟!

يوم قيل لنا إنّ هاشماً قد خرج أخيراً من المعتقل شعرت بحزن أنانيّ عميق، فبعد أن يخرج من المعتقل من سيكون بطليّ العائليّ المأسور الذي أفاخر به الصّديقات والمعارف؛وعندما قيل لنا إنّه قد وصل إلى الأردن، وسوف تقيم له العائلة استقبالاً عائليّاً حاشداً في

ديوانها الاجتماعيّ كدتُ أتقيّأ من شدّة الانفعال ثم أصابني صداع نصفيّ لساعاتٍ طويلة، ثم تورّطت في لعبة الانتظار مجهولة الأسباب.

وكان الحفل الأسريّ الحاشد بعد أيام قليلة تواترت عليها أخبار شتّى عن تفاصيل عودة هاشم، فعرفنا أنّه عاد وحيداً عبر معبر الجسر إلى الأردن، وانتحبنا طويلاً عندما عرفنا أنّ الحاجة وطفة الضّريرة عرفته من رائحته قبل أن يقول أيّ كلمة، وخجلنا من بخلنا عليه عندما عرفنا أنّه اشترى بدنانيره القليلة التي يملكها من حطام الدّنيا مترين من قماش الحبر لأمه التي لطالما سمعها في طفولته تسبّ أخوته إن شاكسوها بقولها: «يا أولاد الكلب، هل اشتريتم لي ثوب الحبر كي تزعجوني هكذا؟!» فخمّن أنّ غاية ما تحلم أمّه به هو أن تملك ثوب حبر مطرّزاً بالحرير الأحمر الموّنس[1]، ولكنّ نقوده قصّرت دون أن يشتري لها «طبب»[2] الحرير المطلوبة.

كنتُ أعتقد أنّني سأرى فارساً ذهبيّاً يجرّ بحبله نمراً مقيّداً، خمّنت أنّ أرض ديوان العائلة ستميد بخطواته الضّاربة في الأرض التي ألفت أن تسخر من ثقل الأغلال الوقحة التي تنحاز إلى المعتدي ضدّ صاحب الأرض والحقّ، أغمضت عيني للحظة كي أفتحهما استعداداً لدخوله بصحبة رجالات العائلة، ثم فتحتهما، فلم أرَ الفارس الأسديّ العائد الذي لطالما تخيّلته، وإنّما رأيت رجلاً متكوّماً

١. الحرير الموّنس: أيّ يتكوّن من درجتين من اللّون ذاته.

٢. طبب الحرير: كرات الحرير.

في معطف شتويّ قديمّ بلحية بيضاء وشعر عنزيّ مسدّل، يسير بثقةٍ مقصودة تكابرعرجاً بادياً في قدمه اليسرى، ويحرص على أن يدسّ يديه في جيبي معطفه، كدّتُ أخون لحظة استقباله، وأهرب من المكان، وطفقت أنتظر الفرصة المناسبة للهرب خارجاً، ولكنّ صوته هو من أخجلني من خيانتي المزمعة، فوحده صوته من جاء على قدر الأمنية؛كان صوتاً فيه أرث كامل من الحكايا والنّضال والشّهداء والأوجاع والكفاح الذي لا يعرف مهادنة، صوته غابة من الرّوائح والكلمات الوجلات والتّنهّدات والصّرخات والإغفاءات واللّمسات. من يستطيع أن يهرب من صوت ابتلع معتقلاً بكلّ ما فيه من جنود غواشم وكلاب عادية وأغلال وسياط وآلات تعذيب؟! صوته مقبرة للأعداء، وترنيمة للبداية والنّهاية.

تكلّم طويلاً عن تجربته في المعتقل، لم يستخدم كلمة أنا أبداً، دائماً كان يقول نحن، كلماته نقلتنا إلى المعتقل، هناك عرّفنا بالأبطال اسماً اسماً، ووجهاً وجهاً، وقصة قصة، كنّا نسأله بفضول وشره، فيجيبنا عنهم بإسهاب وتفصيل، كنّا نكلّمه عن هنا، فيحدّثنا عن هناك، كنّا جميعاً غائبون، وهو وحده الحاضر.يومها صمّمتُ على أن أكون في أقرب مسافة من هذا الرّجل ذي الصّوت السّماويّ، ودفنت صورته المتخيّلة في أبعد نقطة خارج ذاكرتي؛فما حاجتي إلى الصّور الباذخة التّمنّي، وأمامي الحقيقة وافرة الصّدق؟!

لم أكن الوحيدة التي أرادت أن تكون في أقرب مسافاتها من

هاشـم، فهنـاك الكثيـر من أفـراد العائلـة الذيـن أرادوا أن يقتربوا من هذا الرّجل المثقل بالصّمت على الرّغم من موهبته الفطريّة في البوح الآسـر المؤثّـر، ولكنّـني كنـتُ الأكثر حظّـاً في الحصول عـلى النّصيب الأكبـر في الاسـتماع إليه، وفي مرافقته في كثيـر من الدّعوات العائليّة والمحافل الشّـعبيّة التي اسـتضافته بفضول مجلوب مفتعل لتزيد من رصيدها الشّـعبيّ، وتسـتعرض قائمة جمهورها غير العريض في غالب الأحيان، ثم نسيته تماماً بعد أن حقّقت هدفها الإعلاميّ منه.

وأخيـراً خـلا لي وجه هاشـم ووقتـه واهتمامه، ولكنّـه عندها كان وجهـاً كسـيفاً فيـه خرائط حزن بائد لا تضاريـس جبال شمّاء كما هي نفسـه الأبيّة العصّية على الكسـر أو الصّهر أو الاستلاب، قدّر سريعاً بحسّه المرهف أنّ الجمع قد انفضّ من حوله، وخلّوا بينه وبين أحزانه، ليجرع منها ما شـاء، فقد نفِدَ نصيبه من الاهتمام المجتلب المصنوع، أحـد لم يسـأله عن حاضره أو مسـتقبله، قليل مـن عرفوا عن وحدته وخواء جيبه من أيّ قرش، وشخصان أو ثلاثة هم من سألوه عن سرّ بوصلته النّحاسيّة أو أظافره المنزوعة من أصابعه.

أمّا أنا فتحوّلت أقداري من امرأة حالمة بفارسٍ أسطوريّ تفكّر في خبثٍ بأن تحصل من هاشم على مادة شيّقة لتقرير صحفيّ يصلح لأن ينشـر في عامـود بـارز في صحيفة يوميّة مشـهورة إلى صديقة مخلصة تحـرص على أن تسـتمع باهتمام موصول لبطـل حقيقيّ قرّر الجميع في خضـمّ صخـب حيواتهم أن يسـرقوا فمه منـه، ليعتقلوه مـن جديد في

صمت خبيث.

حكايا هاشم كانت بوصلة لا تشير إلاّ إلى الوطن فلسطين وإلى العودة، كانت طُرقه كلّها تقود إلى دربٍ واحد، وهو درب العودة إلى بيت نتّيف، كان حريصاً في كلّ مكان يذهب إليه على أن يمدّ أصابعه العارية من الأظافر إلى جيبه ليخرج بوصلته النّحاسيّة القديمة، ويفتحها ليرقب إبرة المؤشّر تشير إلى اتّجاه فلسطين، وكأنّه في مسير مستعجل نحو العودة، كان يقول لي دائماً إنّه عائد في القريب إلى قريته، وهناك سيعيش في بيت العائلة في الحارة (التّحتى)[1]، وسيتزوّج من بنات عائلة أبو حلاوة[2] ؛لأنّهنّ الأشدّ جمالاً وخصوبة في نساء القرية، وسيعيش وأولاده العشرة الذين يريد أن ينجبهم من ريع الأرض، فهو فلاّح ابن فلاّح، ولا يتقن إلاّ أن يكون كذلك.وعندها يشتاط انفعالاً، فتغلب الحُمرة على خدّيه، وكأنّ الحياة ردّت إليه فجأة بعد رحيل وهو يرفل في أمنياته، كان يحرّر يديه من سجنهما الجيب، ويشرع يستنطقهما في حركاته وهو يتكلّم بإسهاب أخضر مورق بالسّعادة عن أدق التّفاصيل قرية بيت نتّيف، فيطوّف بي على عائلات حاراتها الثّلاثة، ويعدّد أسماء ساداتها، ويتتبّع أنسابها، ويؤكّد في كلّ مرّة أنّ كثيراً من أفخاذ عائلاتها كادت تنقرض في تصّديها الشّجاع لعصابات اليهود الواغلة في أراضيهم في عام ١٩٨٤، ثم يطوّف

---

١. التّحتى:أيّ الجنوبيّة، إذ كانت قرية بيت نتّيف قبل هدمها تتكوّن من ثلاثة حارات رئيسيّة.

٢. أبو حلاوة: هي إحدى عائلات قرية بيت نتّيف.

بي على قاعة السّحلة والمالحة وبير الصّفصاف وخربة أم الذّياب وخربة أم الرّوس وجسر الأربعين ومراح أبو جهنّم وسهل حمّادة[1].

وعندما يحين وقت المساء يصمّم على أن يعود إلى بيته راجلاً بحجّة رغبته في بعض الرّياضة، وأنا أعلم علم اليقين أنّه لا يملك ثمن أجرة حافلة تنقله إلى بيته، فأصمت رحمة بحاجته الأبيّة على الشّكوى والاستجداء.

لم تطل صحبتي مع هاشم، فقد ألّبت خيبات الأمل الأمراض عليه، وكان سهلاً عليها أن تتحالف ضدّ نفسه المفطورة على الإباء حتى أمام الألم، كنتُ كلّما عرضتُ عليه أن أصحبه إلى الطّبيب، يؤجّل ذلك قائلاً: «سأذهب فيما إلى حكيم الوكالة[2] ليكشف عليّ، لا تخافي، لن أموت أبداً في الصّيف، أنا لن أموت إلاّ في مربعانيّة الشّتاء، لأدفن في ليلة ماطرة كلّها زخّ من الرّب».

فأضحك عندها، ويضحك هو، ونتكلّم في أيّ موضوع إلاّ عن أظافر يديه المنزوعة بالكامل تعذيباً في المعتقل الصّهيونيّ التي أؤجّل السّؤال عنها إلى وقت آخر لا أعرف متى يكون، دون أن أعرف أنّ لا مزيد من الوقت أمامي، بل أمامه؛فقد مات هاشم بهدوء وحيداً في بيته الغرفة في المخيّم بعد أن سافرت أمّه لتحقّق حلمها بأن تزور البيت الحرام قبل أن ترحل إلى العالم الآخر.

---

١. أسماء أماكن جغرافيّة في قرية بيت نتّيف.

٢. طبيب عيادة وكالة الغوث(الأونروا).

مات هاشم وفي كفّه بوصلته، وعلى شفتيه ابتسامة صافية كروحه المهر التي لا تبالي بأن تفارق جسده في ليلة صيفيّة لا ممطرة من ليالي المربعانيّة كما كان يتوقّع، مادامت طليقة تحلّق نحو وطنه فلسطين لتخلد هناك إلى الأبد.

خُرّافيّة أبو عرب[1]

«باعوها بعلبة سردين ووقّعوا»[2]، يتعالى صوته الموتور بالحشرجة والزّبد والضّحكات المتدفّقة بتواتر متقطّع محقون، وهو يعيد هذه الجملة كلّما أراد أن يبدأ حديثاً، أو أن ينهي آخر، أو أن يعلّق على أمرٍ ما، أو أن ينتقد موقفاً أيّاً كان حتى ولو كان انتقاداً لأزمة المرور الخانقة في وسط المدينة القديمة حيث يُعسكر منذ سنوات، ثم يطير بعيداً بملابسه المهلهلة، وقبعته الجيفاريّة الخضراء الدّاكنة، ومعطفه العسكريّ الشّتويّ المرّقع الذي لا يخلعه حتى في أشدّ أيام الصّيف حرّاً، وتطير خلفه جملته العتيدة التي لا تهترئ في فمه على الرّغم من تكراره لها، وتطلّ صورة جدّتي في ذاكرتي من ركن عزيز أثير، وهي تختم حكاياها المسائيّة والصّباحيّة إن ألححنا عليها بسرد إحداها في الظّهيرة: «وطار الطّير، وتتمسّوا بالخير».

وعندما نلحّ عليها بأن تروي لنا من جديد قصة مجنون وسط

---

١. كلمة «خُرّافيّة: تعني حكاية أو قصّة، وهي كلمة عاميّة مستعملة بكثرة في السّياق اليوميّ عند الفلسطينيين لاسيما عند كبار السّن منهم، وهي مشتقّة من كلمة خرافة، والفعل منها «خرّف»، ويعني حكى وقال ورى ونقل.

٢.علب السّردين إشارة إلى علب سمك السّردين المعلّب التي كانت تُوزع على الفلسطينيين على شكل معونات دوليّة في خضم نكباتهم ومآسيهم وتشريدهم المتكرّر خارج وطنهم على أيدي الصّهاينة.

المدينة القديمة صاحب الجملة الشّهيرة «باعوها بعلبة سردين ووقّعوا»، تقول لنا وهي تزّم شفتيها احتجاجاً مهزوماً على إجبارها على تكرار القصّة ذاتها لعشرات المرّات: «خرّافيّة أبو عرب كلّها عجب يا أولادي، اسمه أبو عرب، وكان والله ـ زينة الشّباب في قريتنا في فلسطين قبل النّكسة، طوال عمره وهو فدائيّ، يحمل سلاحه، ويهيم في الجبال، ويقاتل الصّهاينة، كان رأسه مطلوباً دائماً للجيش الصّهيونيّ، ولكن أحداً لم يستطع يوماً أن يقبض عليه، كان أسرع حركة من البرق، ولكن أولاد الحرام من الخونة وشوا به، فقُبض عليه، وعُذّب طويلاً في المعتقل الصّهيونيّ، ولكنّه بقي على مواقفه الثّوريّة بكلّ ثبات وإصرار، ورفض أن يُدلي بأيّ معلومة قد تكشف عن هوية أيّ من إخوانه الثّوار، عندما خرج من السّجن نُفيَ إلى هنا، كان يعتقد بأنّه سيجد الرّحمة بين أهله من العرب، وهو من كان يسمّي نفسه بأبي عرب تبرّكاً وتفاؤلاً وإيماناً بالعرب أجمعين، ولكن منذ اللّحظة الأولى التي وطئت قدمه فيها هذه الأرض أُعتقل من جديد بتهمة أنّه مناضل فلسطينيّ، لبث في السّجن العربيّ طويلاً دون أن يعرف أحد مصيره، حتى نسيه النّاس، وعندما خرج من السّجن كان قد خلع فيه مكرهاً ومغبوناً شبابه وذاكرته ونضاله، فنسي النّاس أجمعين إلاّ جريمة تشريد الفلسطينيين، وتواطؤ الخونة مع قوى الاحتلال والظّلام، ولم يعد ينطق إلاّ بجملته الوحيدة «باعوها بعلبة سردين ووقّعوا» التي يكرّرها تعليقاً على كلّ موقف في

الحياة؛فهي ترنيمة جرحه النّازف دون شفاء، ويلخّص بها فجيعة الشّعب الفلسطينيّ. يا أولادي، أبو عرب كان وسيظلّ زين الشّباب حتى ولو كان مجنوناً ضائعاً مشرداً في الشّوارع والزّقاق.

ولأنّني كنتُ أثق بحماس طفوليّ مطلق بمصداقيّة كلّ كلمة تقولها جدّتي الحاجة إلى بيت الله الحرام ثلاث مرّات، فقد كنتُ أُجلّ أبا عرب وأقدّره، بل أحبّه بصمت وتكتّمٍ محزون، وأنظر إليه على أنّه رمز من رموز الكفاح الفلسطينيّ، وكنتُ أصمّم على أن ألقي عليه تحيّة السّلام كلّما مررت به في طريقي ذهاباً وإياباً إلى المدرسة، مخاطراً بأن يطاردني بحجارته الطّائشة التي غالباً ما تُصيب هدفها شأني في ذلك شأن الأطفال الذين يزعجونه بملاحقتهم له، ولكنّه ما فعل ذلك معي قط؛لأنّه على الرّغم من تحليقه خارج العقل إلاّ أنّه كان يملك نظرة سابرة تصبّ مباشرة في فراسته التي لا تخطئ حيال نية من أمامه تجاهه، ولذلك كان يكتفي بأن يصمت عندما ألقي عليه تحية السّلام، ثم يجنح إلى الابتعاد، وهو يكرّر جملته الشّهيرة، فتكرّرها الزّقاق الصّغيرة الآسنة بالصّدى الذي لا يفارقها.

وعندما داسته سيّارة مجهولة في ليلة صقيعيّة باردة، وتركته جثّة هامدة تهبّ دمها قطعاً متجمّدة على قارعة الطّريق، أبت جدّتي أن تكون هذه هي نهاية خُرّافيّة هذا البطل المجهول، وصمّمتُ على أن تصنع له نهاية تليق بروحه الذّهبيّة الأبيّة؛ فأبو عرب لا يمكن أن ينتهي مثل سائر البشر مهزوماً مجهولاً وحيداً، لا يمكن أن تأكل

الأرض جسده بشهيتها المتوحّشة النّهمة، بل هو محرّم على الأرض، وعلى الفناء، ولذلك أصبحت نهاية خُرّافيّته عندها تقول إنّ أبا عرب لم يمت، ولكنّه عاد متسلّلاً إلى فلسطين، وأُستشهد هناك في عملية فدائيّة بطوليّة، ودُفن في مكانٍ سرّيّ في أعالي جبال الشّمال الفلسطينيّ، وفي كلّ ليلة تخرج روحه، وتحمل السّلاح وتقاتل، وسيظلّ كذلك حتى يُبعث يوم القيامة حاملاً سلاحه وروحه، ومردّداً «الله أكبر، فلسطين حرّة عربيّة».

كفرنا جميعاً، أنا وأخوتي وأبناء عمومتي وأولاد الجيران وأترابنا في المدرسة، بنهاية أبي عرب الفاجعة في تلك اللّيلة الشّتويّة الباردة، وآمنّا بحكاية جدّتي؛فهي لا تكذب، وأبو عرب لابدّ أن يحظى بالميتة التي يستحقّها، وروحه لابدّ أنّها تركض الآن فرحة سعيدة في أحراش جبال فلسطين.

أمّا ظلّه فبقي يسعى هناك في الطّرقات المعبّدة بالحجارة الصّخريّة البيضاء، وفي الزّقاق الطّينية الزّلقة، أقسم على أنّني صادفته هناك مئات المرّات بل يزيد، كان يتبختر دون توقّف بخيلاء تليق بقامته المديدة ورقبته الزّاهية الانتصاب، وعندما ألقي عليه التّحية، يبتسم، ويدير ظهره، ويغذّ الخطى نحو البعيد، ويختفي في طرفة عين، فأتسمّر مكاني أقرأ الفاتحة على روحه، ثم أقصد مبتغاي دون أن ألتفت ورائي مهما حضّتني نفسي على ذلك؛فأبو عرب يكره النّظرات الفاحصة الفضوليّة.

كنتُ أعتقدُ أنّ أبا عرب سيموت بموت خُرّافيات جدّتي التي

ماتت بعد أن صلّت العشاء ذات مساء، ودلّكت قدميها بزيت الزّيتون الفلسطينيّ الحار في الشّتاء ذاته الذي قضى أبو عرب نحبه فيه، ولكنّه لم يمت، بل وجدته في كلّ مكان ذهبتُ إليه، وما أكثر الأماكن التي ذهبت إليها، وما أجمل أنّ أبا عرب كطائر الفينيق، لا يموت، بل يُبعث حيّاً من رماده المرّة تلو الأخرى.

هناك في مخيّمات الفلسطينيين المهجّرين في الأردن وسوريا ولبنان وفلسطين قابلته وجهاً لوجه ألف مرّة ومرّة، أحياناً كان يصادفني بفعل بحثي عنه لأغطّي إعلاميّاً أحوال الفلسطينيين المهجّرين في تلك الأماكن بحكم وظيفتي في وكالة الأخبار العالميّة التي أعمل فيها منذ تخرّجت من معهد وكالة الغوث للمعلّمين في تخصّص اللّغة الإنجليزيّة، وكثيراً ما كان يقابلني بسبق إصرار وترصّد منه في جولاتي الفضوليّة الشّخصيّة الرّاجلة وحدي أو مع أصدقاء أو أقارب أو زملاء عمل لاسيما في زيارتي الدّورية المكّوكيّة التي كانت تستنفذ جُلّ راتبي ومدّخراتي أجور سفر بين تلك الدّول ذات التّخوم الحدوديّة المحمّلة بالانتظار والتّصاريح والأختام والتّواقيع خروجاً ودخولاً إليها.

ولكنّني ما كنتُ لأبالي بذلك الجُهد كلّه والغرم والانتظار مادمتُ سأكون وجهاً لوجه مع أبي عرب، وفي كلّ مرّة كانت له خُرّافيّة تؤكّد أنّه خُلق لقدر واحد جبريّ، وهو أن يكون أبا عرب بحيواته النّضاليّة المتجدّد، ونهاياته المشرّفة، كان يجيد أن يلعب معي لعبة التّخفّي،

ولكنّني كنتُ في كلّ مرة أكشفه، وأميّزه من بين الجميع، فيضحك ملء شدقيه كما لم أره يضحك في حياته الأولى قبل أن يتحوّل إلى روح محلّقة في الخلود، ويقول: «باعوها بعلبة سردين ووقّعوا»، ثم يختفي حتى يظهر في القريب العاجل من جديد.

أبو عرب غدا جيشاً من الرّجال والنّساء والأطفال؛ تخفّى في أرحام الفلسطينيات اللّواتي يرضعن أولادهنّ الإباء، فوجدته، تخفّى في حجارة الأرض التي تصرخ يا فلسطينيّ، لكنّني كشفته، نام في مهود الأطفال الفلسطينيين فرأيته، وعندما كنتُ أسمع ترانيم الأمهات، كنتُ أسمع صوت قهقهات أبي عرب.مرّة كان الحاجة محفوظة شتية أم غالب التي حضنت شجرة الزّيتون، ورفضت أن تتخلّى عنها للجّرافة الصّهيونيّة لتقتلعها، وتقذفها بعيدة قتيلة كما فعلوا بابنها منذ أيام، وقفت وقالت لآلة الدّمار الصّهيونيّة أمام أنظار العالم وحيدة عجوزاً صامدة: «لا» فعرفت عندها أنّ روح أبي عرب قد تقمّصتها.

وعندما أُغتيل العمّال الفلسطينيون على الحواجز الصّهيونيّة بجريمة أنّهم يسعون في مناكب وطنهم بحثاً عن لقمة عيش كريمة لهم ولأهاليهم كان لهم جميعاً وجه ضاحك مزهوّ بالشّهادة، لم يعرف الصّهاينة لمن يكون هذا الوجه المتكرّر في الجماجم جميعها، ولكنّني كنتُ أعرف أنّه وجه أبي عرب.

تصميمي على أن أكون في أقرب نقاطي من أبي عرب جعلني أحظى بعروض إعلاميّة بالغة الأهميّة والنّدرة والاستثنائيّة، وهيّأ

لي العمل في أكثر وكالات الإعلام الإخباريّة شهرة وعالميّة وتغطية، وغدا لي برنامج أسبوعيّ جماهيريّ استقطابيّ واستفزازيّ لكلّ من لا يملك أن يكون أبا عرب، وقد أسميت البرنامج «خُرّافيّة أبو عرب»، كلّ حلقة كانت حول بطل فلسطينيّ أو بطلة فلسطينيّة على ثغور الصّمود، كانت الأسماء والوجوه في ظاهرها مختلفة، ولكنّها في باطنها كانت جميعاً لأبي عرب.

مرّة كان اسم أبو عرب دلال المغربيّ، ومرّة كان ينشد أناشيد إسلاميّة بلغته غير العربيّة، قبل أن يقوم بعملية استشهاديّة، ويكون اسمه مرّة آصف محمد ومرّة عمر خان شريف اللّذين آمنا بعدالة القضية الفلسطينيّة، وأصبح اسمهما أبا عرب، وإن لم يكونا من العرب.

أجاد أبو عرب أن يملك الأسماء جميعها و الوجوه كلّها، وقصّرتُ عن أن أحيط به علماً في كلّ مكان وزمان وفعل، ولكنّني عرفت أنّه كان مرّة هاشم النّجار، ومرّات أُخر كان محمد صلاح حبيشي، ومحمد فرحات، وحاتم السّيسي، وعماد عقل، ورائد زكارنه، وعلاء أبو دهيم، وريم الرّياشيّ، وفاطمة النّجار، وعجبت من حصافته عندما كان اسمه يحيى عيّاش، فابتكر وسائل التّفخيخ والدّارات الكهربائيّة في العمليات الاستشهاديّة، ثم ابتكر تقنية التّفجير عن بعد بواسطة الهاتف النّقال عندما كان محيي الدّين الشّريف، وهلّلت كما هلّل العالم كلّه لشجاعته وهو يتصدّى وحده لمعشر الشّرك الصّهيونيّ، ويفجّر نفسه بهم في رام الله عندما كان سليمان زيدان، أو في بيسان

عندما كان ساهر التّمام، أو في نتانيا عندما كان اسمه عبد الباسط عودة، أو عندما أطلق أوّل صاروخ يُصنع محلّياً في فلسطين وهو عندئذ نضال فرحات، وكم شعرتُ بالقهر وخيبة الأمل عندما أُغتيل قبل أن يكمل صناعته لأوّل طائرة تُصنع في فلسطين، وكم بكيتُ وبكى العالم معي وهو يسمع وصيّته المسجّلة بالفيديو الموجّهة لأمه كي لا تحزن و كي تفخر به، وهو عندها الشّاب الفلسطينيّ الوسيم الذي يزخر بالحياة والعافية والصّحة محمد فرحات.

أضناني أبو عرب وأنا أجده في كلّ مكان، كان هناك في المقابر يشيّع الشّهداء، ويلقّنهم إجاباتهم لملائكة الحساب، وهو من كان يضرب طبول السّحور في رمضان، وكان آخر من يغادر حقول الحصاد في موسم الجني، وعلى الجدران كنتُ أميّز خطّه المسهود المزهو بعبارة: «فلسطين حرّة عربيّة»، وفي الصّفوف الأولى لصلاة الفجر كان يتّخذ مكانه، وهو من كان يقرع نواقيس الكنائس في القدس القديمة، وهو من كان يؤذّن في آذان المواليد الجدد، وبفمه كان يلوك لهم لقم تمرهم الأولى.

حاولت كثيراً أن أحضن أبا عرب، ولو لمرّة واحدة في حياتي، لأقول له ما لم أستطع أن أقوله له وأنا صغير، كنتُ أريد أن أقول له: «أنا أحبّك كثيراً يا أبا عرب»، ولكنّه في كلّ مرة كان يهرب مني إلى قدره الذي يجبره على أن يكون سوّاحاً في سائر أرجاء الأرض، وأن أكون مطارداً له لا يعرف هدأة أو سكوناً؛وفي هذه المطاردة اكتشفتُ

عاداته الكثيرة، وطبائعه المختلفة، وملكاته المتعدّدة، ولغاته المتنوّعة، وحيواتـه المتعـدّدة، كان موجـوداً في كلّ قلـب يؤمـن بعدالـة القضية الفلسطيّنيّة أياً كان، وأينما كان، ومتى كان.

وفرحـتُ إذ علمـت أنّ أبا عرب لم يعش وحيداً، ولم يمت فرداً أبترَ كمـا كنـتُ أعتقـد، وكما حدّثتـني جـدّتي في خرّافيّته، بـل كان هناك عشـرات الألـوف مـن النّسـاء اللّـواتي تزوجهّـن، وأسماؤهـنّ جميعاً أم عـرب، كذلـك عنده جيـش من البنـات والبنين الذي يحملون اسـم عـرب، ويحملـون أسمـاء وهميّة مضلّلة كي لا يُفتضـح أمرهم، ولذلك قمـتُ أحـدّق في الوجـوه الصّغيـرة في كلّ مـكان، وأتسـاءل أيّهـم قـد يكون ابن أبي عرب؟ وحلاً لهذا السّؤال المجنون الذي لا يدرك عقل الحقيقة تعاملت مع الأطفال جميعهم على اعتبار أنّهم أبناء أبي عرب، ولم أنفك أحكي خرّافيّته لكلّ طفل ألقاه لكي يعرف في يوم من الأيام من تراه يكون، وأخالهُ سيفعل.

كان مشـروعي القـادم هو أن أسـجلّ خُرّافيّـات أبي عرب جميعها في كتـاب قصصـيّ جامـع للأطفـال كـي يقـرأوا مـا عليهـم أن يكونوا، ولكـن تلـك المهّمـة الإعلاميّـة العاجلـة في قطـاع غزّة جعلتـني أترك ورقي وأقلامي ودواتي على طاولة مكتبي، وأطير إلى هناك أسـرع من نعامـة كـي أنقل للعالم جـرائم الصّهيونيّة في حـق أبي عرب، أعني في حق الفلسـطينيين العزّل، لم تكن مهمّتي أن أصوّر ما يحدث بشـكل ميـدانيّ، ولكنّـني صمّمـت عـلى ذلـك لتكـون عدسـة آلـة تصويري

حجّتي عليهم أمام الله وأمام العالم كلّه، بعدستي أخذت آلاف الصّور لأبي عـرب، ذُبـح في يـوم واحد آلاف المرات، ورقد على أسـرّة المرض جميعها بالعلل كلّها والجراح والحروق، واستصرخ العالم، فكاد جوابهم لـه الصّـدى، ولاشيء غيـر الصّدى، ولكنّه على الرّغـم من ذلك ظلّ يُبعـث حيّـاً مـرّة تلـو الأخرى، وأخيـراً كانـت القذائـف المدفعيّة التي كانت تستهدف قدمي اللّتين قفزتا بعيداً عني شهيدتين على الأرض، ووحدهـا آلـة تصويري من بقيت مخلصة لي في هذه اللّحظة الغادرة، في البعيد رأيت أبا عرب يكرّ ويفرّ، وقريباً مني كانت قدماي ونزيف دم ضخـم، وألم خـارق ممـزّق لا يخجـل مـن أن يتحالـف مـع قذائـف غاشمـة ضـدّي، وسـيراً عـلى أهـمّ عـادات أبي عـرب الملغـزة الخالدة ابتسـمت هازئـاً مـن ألمـي الطّاغـي، وتسـاءلت مـاذا تراه يفعـل ابني عـرب الآن؟ لقـد جـاء إلى الدّنيـا قبـل أيـام قليلة، وسمعتـه ينطق في المهـد، ويقـول: «اصمد يـا أبتاه»، ولكنّني لا أسـتطيع أن أصمد أكثر، في الأفـق كانت تفُتـح بوابة الزّمن، وتُطلّ منهـا جيوش العائدين من الفلسـطينيين المهجّرين كأطواق زنابـق نديّة، وأجداث الأرض تُفتح ليخـرج أمواتهـا الفلسـطينيون عائديـن ليرقدوا رقدتهم السّـرمديّة في وطنهـم، في حـين جلسـت جـدّتي عـن يمينـي تـروي لي خُـرّافيـة أبي عرب التي أعشـقها لعلّها تلهيني عن ألمي المتضخّم كما كانت تُلهيني عـن جوعـي ومـرضي في صغري، ومـن شمالي شـخصتُ أرقب قذيفة صهيونيّـة أخـرى تقصـدني، بـل تقصـد أبا عـرب، وكان اسمـي واسمه

عندئـذ عمـاد غانم مصوّر قنـاة الأقصى الفلسـطينيّة[1]، وعمّ الصّمت، وغابت الصّور جميعها، وغشينا أخيراً السّكون الأزليّ اللّذيذ.

*****

انتهت المجموعة القصصيّة
كُتبتْ في الشّتات وأنا مع أمّي الحبيبة نعيمة المشايخ

١. أسمـاء الأبطال والشّـهداء الواردة في القصة هي أسمـاء حقيقيّة، وبطولاتهم المدرجة في القصّة هي بطولات حقيقيّة لا خياليّة.

د. سناء شعلان (بنت نعيمة)

أديبة وأكاديميّة وإعلاميّة أردنيّة من أصول فلسطينيّة، وكاتبة سيناريو، ومراسلة صحفيّة لبعض المجلات العربيّة، وناشطة في قضايا حقوق الإنسان والمرأة والطّفولة والعدالة الاجتماعيّة، تعمل أستاذة للأدب الحديث في الجامعة الأردنية/ الأردن، حاصلة على درجة الدّكتوراه في الأدب الحديث ونقده بدرجة امتياز، عضو في كثير من المحافل الأدبية والأكاديميّة والإعلاميّة والجهات البحثيّة والحقوقيّة المحليّة والعربيّة والعالميّة.

حاصلة على نحو٦٣ جائزة دوليّة وعربيّة ومحليّة في حقول الرّواية والقصّة القصيرة وأدب الأطفال والبحث العلميّ والمسرح، كما تمّ تمثيل الكثير من مسرحيّاتها على مسارح محليّة وعربيّة.

لها نحو ٧٠ مؤلفاً منشوراً بين كتاب نقديّ متخصّص ورواية ومجموعة قصصيّة وقصّة أطفال ونصّ مسرحيّ مع رصيد كبير من الأعمال المخطوطة التي لم تُنشر بعد، إلى جانب المئات من الدّراسات والمقالات والأبحاث المنشورة، فضلاً عن الكثير من الأعمدة الثّابتة في كثير من الصّحف والدّوريات المحليّة والعربيّة.

لها مشاركات واسعة في مؤتمرات محلّية وعربيّة وعالميّة في قضايا الأدب والنّقد وحقوق الإنسان والبيئة والعدالة الاجتماعيّة والتّراث

العربيّ والحضارة الإنسانيّة والآداب المقارنة، إلى جانب عضويّتها في لجانها العلميّة والتّحكيميّة والإعلاميّة.

هي ممثّلة لكثير من المؤسّسات والجهات الثّقافيّة والحقوقيّة، كما أنّها شريكة في الكثير من المشاريع العربيّة والعالميّة الثّقافيّة والفكريّة.

تُرجمت أعمالها إلى الكثير من اللّغات، ونالت الكثير من التّكريمات والدّروع والألقاب الفخريّة والتّمثيلات الثقافيّة والمجتمعيّة والحقوقيّة.

مشروعها الإبداعيّ حقل للكثير من الدّراسات النّقديّة والبحثيّة ورسائل الدّكتوراه والماجستير في الأردن والوطن العربيّ والعالم.

من أعمالها المنشورة:

١. الرّوايات:

١. أعشقني.
٢. السّقوط في الشّمس.
٣. أدركها النّسيان.

٢. روايات الفتيان:

١. أصدقاء ديمة.

٣. المجموعات القصصيّة:

١. قافلة العطش.

٢. تراتيل الماء.

٣. الجدار الزّجاجيّ.

٤. حدث ذات جدار.

٥. الذي سرق نجمة.

٦. تقاسيم الفلسطينيّ.

٧. عام النّمل.

٨. رسالة إلى الإله.

٩. أرض الحكايا.

١٠. مقامات الاحتراق.

١١. ناسك الصومعة.

١٢. قافلة العطش.

١٣. الكابوس.

١٤. الهروب إلى آخر الدّنيا.

١٥. مذكّرات رضيعة.

١٦. أكاذيب النّساء.

١٧. الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء١

١٨. الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٢

١٩. الأعمال القصصيّة الكاملة، جزء٣

٤. مجموعات قصصيّة مشتركة مع أدباء عرب وعالميين:

١. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان «القصّة في الأردن: نصوص ودراسات».

٢. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان «الضّياع في عيني رجل الجبل».

٣. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين عرب بعنوان «في العشق».

٤. مجموعة قصصيّة مشتركة مع قاصّين أردنيين بعنوان «مختارات من القصّة الأردنيّة».

٥. مجموعة قصصية مشتركة مع قاصّين مصريين بعنوان «مجموعة نجوم القلم الحرّ في سماء الإبداع».

٥. مسرحيّات للكبار:

١. إعداد وسنيوغرافيا لمسرحيّة «صانعة» المقتبسة عن مسرحيّة (البيت النّظيف) للأمريكيّة سارة رول.

٢. دعوة على شرف اللّون الأحمر.

٣. «سيلفي» مع البحر.

٤. وجه واحد لاثنين ماطرين.

٥. محاكمة الاسم (×).

٦. السّلطان لا ينام.

٧. خُرّافيّة سعديّة أمّ الحظوظ.

٦. مسرحيّات للفتيان والفتيات:

١. اليوم يأتي العيد.

٢. رحلة مع المعلّمة فرحة.

٧. قصص أطفال:

١. قصّة للأطفال بعنوان «زرياب: معلّم الناس والمروءة».

٢. قصّة للأطفال بعنوان «هارون الرّشيد: الخليفة العابد المجاهد».

٣. قصّة للأطفال بعنوان «الخليل بن أحمد الفراهيديّ: أبو العروض والنّحو العربيّ».

٤. قصّة للأطفال بعنوان «ابن تيمية: شيخ الإسلام ومحيي السّنّة».

٥. قصّة للأطفال بعنوان «اللّيث بن سعد: الإمام المتصدّق».

٦. قصّة للأطفال بعنوان «العزِّ بن عبد السّلام: سلطان العلماء وبائع الملوك».

٧. قصّة للأطفال بعنوان «عبّاس بن فرناس: حكيم الأندلس».

٨. قصّة للأطفال بعنوان «زرياب: معلّم النّاس والمروءة».

٩. قصّة للأطفال بعنوان «صاحب القلب الذّهبيّ».

١٠. مئات القصص المصورة للأطفال المبثوثة والمنشورة في مجلاّت الأطفال المحليّة والعربيّة.

٨. المقالات والنّصوص النّثريّة:

١. أبي سيّد الكلمات.

٢. الذين لا ينامون.
٣. قالت النّساء.
٤. غصون وتخوم.
٥. الدّرب إليهم.
٦. الأعمال النّثريّة الكاملة.

٩. لقاءات حواريّة:

١. الهدهد والخاتم: لقاءات مع مبدعين عراقيين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (١)
٢. العرّافة والجبل: لقاءات مع مبدعين عرب، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٢)
٣. لقاءات حواريّة: لقاءات مع مبدعين عالميين، سلسلة حوارات إبداعيّة وفكريّة (٣)

١٠. كتب نقديّة متخصّصة:

١. الأسطورة في روايات نجيب محفوظ.
٢. السّرد الغرائبيّ والعجائبيّ في الرّواية والقصّة القصيرة في الأردن١٩٧٠- ٢٠٠٣م
٣. دور جلالة الملك في مكافحة الإرهاب: تفجيرات عمان في قصص بالشّراكة مع المؤلّف وائل الفاعوريّ.

٤. الدّواني والغواني: غصون في الأدب المعاصر ونقده.
٥. السّراب وأهزوجة النّور: دراسات نقديّة في الأدب المعاصر.
٦. تزّم الصّوت وثورة الصّدى: دراسات نقديّة في إبداعات معاصرة.
٧. So Close, Much Farther: Studies in Criticism

١١. المشاركة في فصول نقديّة في كتب نقديّة محكّمة متخصّصة:
١. المشاركة بفصل بعنوان «السّرد الجميل لتأثيث عالم قبيح» في كتاب بعنوان «حنون مجيد في منجزه القصصيّ»، جمع وإعداد وتحرير د. سمير الخليل.
٢. مشاركة بفصل بعنوان «لقاء مع العلامة علي القاسميّ: أبو المعاجم العربية الحديثة» في كتاب «الدّكتور علي القاسميّ سيرة ومسيرة: مجموعة بحوث ودراسات مهداة إليه بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسّبعين»، جمع وإعداد د. منتصر أمين عبد الرّحيم.
٣. المشاركة بفصل بعنوان «عبد الكريم غرايبة العملاق الذي ينير الدّرب للجميع» في كتاب «عبد الكريم غرايبة مؤّرخاً عربيّاً».
٤. المشاركة بفصل بعنوان «مساحة التّوتّر بين الانتظار والخيبة عند القاصّ العراقيّ فرج ياسين في مجموعته القصصيّة «واجهات برّاقة» في كتاب «في آفاق النّص القصصيّ: مقاربات في الهويّة والنّص والتّشكيل عند فرج ياسين».

٥. المشاركة بفصل بعنوان «البطل في قصص زياد أبو لبن» في كتاب «القصّة القصيرة في الوقت الرّاهن».
٦. المشاركة بفصل بعنوان «الذين لا يموتون» في كتاب «المبدع الرّاحل محيي الدّين زنكنه بأقلام أصدقائه».
٧. المشاركة بفصل بعنوان «الفنتازيا رداء للتّثوير في التّجربة القصصيّة عند محيي الدّين زنكنة» في كتاب نقديّ بعنوان «نظرات نقديّة في عالم محيي الدّين زنكنه الإبداعيّ».
٨. المشاركة بفصل بعنوان «شهادة إبداعيّة للأديبة الأردنيّة سناء شعلان» في كتاب «دراسات نقديّة عن الأدب الكرديّ».

١٣. الكتب المنهجيّة:

١. كتاب بعنوان «تعليم اللّغة العربيّة للنّاطقين بغيرها: المستوى الخامس»، كتاب مشترك مع مجموعة من المؤلّفين الأكاديميين.

عنوان المؤلّفة: د. سناء شعلان (بنت نعيمة)
الأردن ـ عمان ـ الرّمز البريدي ١١٩٤٢
ص. ب ١٣١٨٦
خلوي وواتس وفايبر: ٠٠٩٦٢٧٩٥٣٣٦٦٠٩
البريد الالكتروني
Selenapollo@hotmail.com
الفيس بوك: Sanaa Shalan

من واجب الجدار الفاصل أن يخجل من نفسه، وأن يبكي
-ولو سرّاً- احتجاجاً على طغيانه واشمئزازاً من وجوده!

• ایران، قم، خیابان ۱۹ دی، کوی ۴۰
کوچه یکم، مجتمع آفتاب طبقه چهارم، واحد ۲
• تلفن: ۰۲۵۳۷۷۱۰۰۸۸

بنیادافرا

ISBN:978-600-96680-8-3